

سورة العنكبوت

مكية [إلا من آية ١ إلى غاية آية ١١ فمدنية]

وآياتها ٦٩ [نزلت بعد الروم]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَمَ ۙ أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ۗ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾

الحسبان لا يصح تعليقه بمعاني المفردات. ولكن بمضامين الجمل. ألا ترى أنك لو قلت: حسبت زيدا وظننت الفرس: لم يكن شيئاً حتى تقول: حسبت زيدا عالماً؛ وظننت الفرس جواداً، لأنّ قولك: زيد عالم، أو الفرس جواد. كلام دال على مضمون، فأردت الإخبار عن ذلك المضمون ثابتاً عندك على وجه الظن لا اليقين، فلم تجد بداً في العبارة عن ثباته عندك على ذلك الوجه، من ذكر شطري الجملة مدخلاً عليهما فعل الحسبان، حتى يتم لك غرضك ٢/٨٢ب. فإن قلت: فأين الكلام الدال على المضمون الذي يقتضيه الحسبان في الآية؟ قلت: هو في قوله: ﴿أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ وذلك أن تقديره: أحسبوا تركهم غير مفتونين، لقولهم: آمنا، فالترك أول مفعولي حسب؛ ولقولهم: آمنا، هو الخبر. وأما «غير مفتونين» فتتمة الترك، لأنه من الترك الذي هو بمعنى التصير، كقوله [من الكامل]:

فَتَرَكُّهُ جَزَرَ السَّبَاعِ يُنْشِنُهُ (١)

ألا ترى أنك قبل المجيء بالحسبان. تقدر أن تقول: تركهم غير مفتونين، لقولهم: آمنا، على تقدير: حاصل ومستقر، قبل اللام. فإن قلت: (أن يقولوا) هو علة تركهم غير مفتونين، فكيف يصح أن يقع خبر مبتدأ؟ قلت: كما تقول خروجه لمخافة الشر، وضربه للتأديب، وقد كان التأديب والمخافة في قولك: خرجت مخافة الشر، وضربته تأديباً: تعليلين. وتقول أيضاً: حسبت خروجه لمخافة الشر، وظننت ضربه للتأديب، فتجعلهما

(١) تقدم.

مفعولين كما جعلتهما مبتدأ وخبراً. والفتنة: الامتحان بشدائد التكليف: من مفارقة الأوطان، ومجاهدة الأعداء، وسائر الطاعات الشاقة، وهجر الشهوات والملاذ، وبالفرق؛ والقحط وأنواع المصائب في الأنفس والأموال. وبمصابرة الكفار على أذاهم وكيدهم وضراهم. والمعنى: أحسب الذين أجروا كلمة الشهادة على ألسنتهم وأظهروا القول بالإيمان: أنهم يتركون بذلك غير ممتحنين، بل يمحنتهم الله بضروب المحن، حتى يبلو صبرهم، وثبات أقدامهم، وصحة عقائدهم، ونصوح نياتهم، ليتميز المخلص من غير المخلص، والراسخ في الدين من المضطرب، والتمكن من العابد على حرف، كما قال:

﴿لَسَلَوْتُ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَسَعَمَ مِنَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً وَإِنْ نَصَرُوا وَتَشَفَّوْا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزَابِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦]

وروي أنها نزلت في ناس من أصحاب رسول الله - ﷺ - قد جزعوا من أذى المشركين، وقيل في عمار بن ياسر: وكان يعذب في الله. وقيل: في ناس أسلموا بمكة، فكتب إليهم المهاجرون: لا يقبل منكم إسلامكم حتى تهاجروا، فخرجوا فاتبعهم المشركون فردوهم، فلما نزلت كتبوا بها إليهم؛ فخرجوا فاتبعهم المشركون فقاتلوهم، فمنهم من قتل ومنهم من نجا. وقيل: في مهجع بن عبد الله مولى عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -، وهو أول قتيل من المسلمين يوم بدر، رماه عامر بن الحضرمي فقال رسول الله - ﷺ -: «سيد الشهداء مهجع، وهو أول من يدعى إلى باب الجنة من هذه الأمة (١١٦)، فجزع عليه أبواه وامرأته ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا﴾ موصول بأحسب أو بلا يفتنون، كقولك: ألا

١١١٦ - قال الزبلي: غريب ونقل عن الثعلبي أنه روى أثر مقاتل قال: نزلت هاتان الآياتان في مهجع ابن عبد الله مولى عمر بن الخطاب كان أول من قتل من المسلمين يوم بدر رماه عامر الحضرمي بسهم فقتله فقال النبي - ﷺ -: «سيد الشهداء مهجع وهو أول من يدعى إلى باب الجنة من هذه الأمة». وذكره البخاري في معالم التنزيل (٤٦٠/٣). وذكره الواحدي في أسباب النزول (ص ٣٥٠) رقم (٦٦٦) ورواه الحاكم (٢٨٤/٣) عن وائلة بن الأسقع - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: «خير السودان ثلاثة لقمان وبلال ومهجع مولى رسول الله - ﷺ -».

وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

وتعقبه الذهبي بأنه لا يعرف «مهجع».

وإسناد الحديث فيه شيخ الحاكم إسماعيل بن محمد بن الفضل بن محمد الشعرائي النيسابوري. قال الحاكم: ارتبت في لقيه بعض الشيوخ وذكر له حديثاً وقال غريب فرد. ينظر الأنساب للسمعاني (١١٠/٨)، و«اللسان» (٤٣٤/١).

قال الحافظ في «تخريج الكشاف»: ذكره الثعلبي عن مقاتل قال: نزلت هاتان الآياتان في مهجع بن عبد الله مولى عمر كان أول من قتل من المسلمين يوم بدر رماه عامر بن الحضرمي بسهم فقتله فقال النبي - ﷺ -: «سيد الشهداء مهجع وهو أول من يدعى إلى باب الجنة من هذه الأمة وسنده إلى مقاتل في أول كتابه وفي الدلائل لابن أبي شيبة من طريق القاسم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن =

يمتحن فلان وقد امتحن من هو خير منه، يعني: أن أتباع الأنبياء عليهم السلام قبلهم، قد أصابهم من الفتن والمحن نحو ما أصابهم. أو ما هو أشد منه فصبروا، كما قال: ﴿وَكَايِنَ مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِيثُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا﴾ . . . الآية وعن النبي ﷺ: «قد كان من قبلكم يؤخذ فيوضع المنشار على رأسه فيفرق فرقتين، ما يصرفه ذلك عن دينه؛ ويمشط بأمشاط الحديد ما دون عظمه من لحم وعصب، ما يصرفه ذلك عن دينه (١١١٧) ﴿فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ﴾ بالامتحان ﴿الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ في الإيمان ﴿وَلْيَعْلَمَنَّ الْكَافِرِينَ﴾ فيه. فإن قلت: كيف وهو عالم بذلك فيما لم يزل؟ قلت: لم يزل يعلمه معدوماً، ولا يعلمه موجوداً إلا إذا وجد^(١)، والمعنى: وليتميزن الصادق منهم من الكاذب. ويجوز أن يكون وعداً ووعداً، كأنه قال: وليشبين الذين صدقوا وليعاقبن الكاذبين. وقرأ علي - رضي الله عنه - والزهري: وليعلمن، من الإعلام، أي: وليعرفنهم الله الناس من هم. أو ليسمنهم بعلامة يعرفون بها من بياض الوجوه وسوادها، وكحل العيون وزرقتها.

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْفُتُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ ﴿٤﴾

﴿أَنْ يَسْفُتُونَا﴾ أن يفوتونا، يعني أن الجزء يلحقهم لا محالة، وهم لم يطمعوا في الفوت، ولم يحدثوا به نفوسهم، ولكنهم لغفلتهم وقلة فكرهم في العاقبة وإصرارهم على المعاصي: في صورة من يقدر ذلك ويطمع فيه. ونظيره ﴿وَمَا أَنتَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ﴾ [المنكوب: ٢٢]، ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِرُونَ﴾ ﴿٥١﴾ [الأنفال: ٥٩]. فإن قلت: أين مفعولاً «حسب»؟ قلت: اشتمال صلة أن على مسند ومسند إليه سد مسد المفعولين؛

= مسعود قال: أول من استشهد يوم بدر مهجع مولى عمر. انتهى.

١١١٧ - أخرجه البخاري (٢٠٢/٧) كتاب مناقب الأنصار باب ما لقي النبي - ﷺ - وأصحابه من المشركين بمكة حديث (٣٨٥٢)، (٧١٦/٦) كتاب المناقب حديث (٣٦١٢) وفي (٣٣٠/١٢) كتاب الإكراه باب من اختار الضرب والقتل والهوان على الكفر حديث (٦٩٤٣) وأبو داود (٤٧/٣) كتاب الجهاد: باب في الأسير يكره على الكفر حديث (٢٦٤٩) والنسائي (٢٠٤/٨) وأحمد (٥/١٠٩ - ١١٠ - ١١١) من حديث خباب بن الارت. قال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه البخاري من حديث خباب بن الارت، به وأتم منه.

(١) قال محمود: «إن قلت هو لم يزل يعلم الصادقين والكاذبين قبل الامتحان، فما وجه هذا الكلام؟ قلت: لم يزل يعلمه معدوماً ولا يعلمه موجوداً إلا إذا وجد» قال أحمد: فيما ذكر إيهام بمذهب فاسد، وهو اعتقاد أن العلم بالكائن غير العلم بأن سيكون. والحق أن علم الله تعالى واحد يتعلق بالوجود زمان وجوده وقبله وبعده على ما هو عليه، وفائدة ذكر العلم هاهنا وإن كان سابقاً على وجود المعلوم: التنبيه بالسبب على المسبب وهو الجزء، كأنه قال تعالى: لنعلمنهم فلنجازينهم بحسب علمه فيهم، والله أعلم.

كقوله تعالى: ﴿أَمْ حَبِئْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٢١٤] ويجوز أن يضمن حسب معنى قدر وأم منقطعة. ومعنى الإضراب فيها: أن هذا الحساب أبطل من الحساب الأول، لأن ذلك يقدر أنه لا يمتحن لإيمانه، وهذا يظن أنه لا يجازى بمساويه ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ بئس الذي يحكمونه حكمهم هذا. أو بئس حكما يحكمونه حكمهم هذا، فحذف المخصوص بالذم.

﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

لقاء الله: مثل للوصول إلى العاقبة، من تلقى ملك الموت، والبعث، والحساب، والجزاء: مثلت تلك الحال بحال عبد قدم على سيده بعد عهد طويل، وقد اطلع مولاه على ما كان يأتي ويذر، فإما أن يلقاه بشير وترحيب لما رضي من أفعاله، أو بضد ذلك لما سخطه منها، فمعنى قوله: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ﴾: من كان يأمل تلك الحال. وأن يلقى ١٨٣/٢ فيها الكرامة من الله والبشر ﴿فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ﴾ وهو الموت ﴿لَآتٍ﴾ لا محالة؛ فليبادر العمل الصالح الذي يصدق رجاءه، ويحقق أمله، ويكتسب به القربة عند الله والزلزلى ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ الذي لا يخفى عليه شيء مما يقوله عباده ومما يفعلونه، فهو حقيق بالتقوى والخشية. وقيل (يرجو): يخاف من قول الهذلي في صفة عسال [من الطويل]:

إِذَا لَسَعَتْهُ الدَّبْرُ لَمْ يَرْجُ لَسَعَهَا (١)

فإن قلت: فإن أجل الله آت، كيف وقع جواباً للشرط؟ قلت: إذا علم أن لقاء الله عنيت به تلك الحال الممثلة والوقت الذي تقع فيه تلك الحال هو الأجل المضروب للموت: فكأنه قال: من كان يرجو لقاء الله فإن لقاء الله آت، لأن الأجل واقع فيه اللقاء، كما تقول: من كان يرجو لقاء الملك فإن يوم الجمعة قريب، إذا علم أنه يقعد للناس يوم الجمعة.

﴿وَمَنْ جَاهَدْ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾

﴿وَمَنْ جَاهَدْ﴾ نفسه في منعها ما تأمر به وحملها على ما تاباه ﴿فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ﴾ لها، لأن

(١) إذا لسعته الدبر لم يرج لسعها وحالفها في بيت نوب عواسل

أبي ذؤيب، يصف عسالا يجتني العسل: بأنه إذا لسعته الدبر - بالفتح والكر-: ذكور النحل والزناير. وروي كذلك: لم يرج، أي: لم يخف لسعها إذا أرادت لسعه. أو لسعته بالفعل لم يخف من مثله، أو لم يرتقبه ويعتني به، وحالفها: أي لازمها. ويروي بالمعجمة، أي: خالف مرادها. أو جاء خلفها بعد أن خرجت ترعى. والنوب: ضرب من النحل واحده نائب؛ لأنه يذهب إلى بيته نوبة بعد نوبة، عواسل: كثيرة العسل. وروي: عواسل، بالميم لأنها تعمل العسل.

منفعة ذلك راجعة إليها، وإنما أمر الله عز وجل ونهى، رحمة لعباده وهو الغني عنهم وعن طاعتهم.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾﴾

إما أن يريد قوماً مسلمين صالحين قد أساءوا في بعض أعمالهم وسيئاتهم مغمورة بحسناتهم فهو يكفرها عنهم، أي يسقط عقابها بثواب الحسنات ويجزيهم أحسن الذي كانوا يعملون، أي: أحسن جزاء أعمالهم: وإما قوماً مشركين آمنوا وعملوا الصالحات، فالله عز وجل يكفر سيئاتهم بأن يسقط عقاب ما تقدم لهم من الكفر والمعاصي ويجزيهم أحسن جزاء أعمالهم في الإسلام^(١).

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَسَنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾

«وصى» حكمه حكم «أمر» في معناه وتصرفه. يقال: وصيت زيداً بأن يفعل خيراً، كما تقول: أمرته بأن يفعل؛ ومنه بيت الإصلاح [من الوافر]:
وَدُبِّيَانِيَّةٍ وَصَّتْ بِنِيهَا
بِأَنْ كَذَبَ الْقَرَاطِفُ وَالْقُرُوفُ^(٢)
كما لو قال: أمرتهم بأن ينتهبوها. ومنه قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَاهَا بِإِذْنِهِمْ رَبِّهَا﴾ [البقرة: ١٣٢] أي وصاهم بكلمة التوحيد وأمرهم بها، وقولك: وصيت زيداً بعمرو، معناه: وصيته

(١) قال محمود: «المراد بهؤلاء أحد فريقين: إما قوم مسلمون سيئاتهم صفائر مغمورة بالحسنات، وإما قوم آمنوا وعملوا الصالحات بعد كفر فالإسلام يجب ما قبله» قال أحمد: حجر واسعاً من رحمة الله تعالى، بناء على أصله الفاسد في وجوب الوعيد على مرتكب السيئات الكبائر لا بالتوبة، وأطلق تكفير الصفائر وإن لم تكن توبة إذا غمرتها الحسنات، وكلا الأصلين قدرني مجتنب، والله الموفق.

(٢) لمعقر بن حمار البارقى، أشده ابن السكيت في كتابه المسمى: إصلاح المنطق، أي: امرأة منسوبة إلى قبيلة ذبيان وصت بنيتها. وأن مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن، وخبرها: كذب، وهو قد يكون بمعنى وجب كما في الصحاح. وفي الحديث: ثلاثة أسفار كذب عليكم، أي: وجبن. وعن عمر رضي الله عنه: كذب عليكم الحج، أي وجب. وفي الكلام معنى الحث والإغراء. والقراطيف: جمع قرطف، وهو القطيفة المخملة. والقروف: أوعية من آدم يجعل فيها اللحم المشوي. والقرف - بالكسر -: المقشر. والقرفة: قشر يداوي به. والقرف - بالفتح - وعاء من جلد يدبغ بالقرفة. واقترب، واقتربان لفظاً ومعنى، أي: وصتهم باغتنامها وحفظها معهم. ينظر إصلاح المنطق ص ١٥، ٦٦، ٢٩٣، خزنة الأدب (١٥/٥)، (١٩٩/٦)، سمط اللآلي (ص ٤٨٤)، لسان العرب (شمس).

بتعهد عمرو ومراعاته ونحو ذلك. وكذلك معنى قوله: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾: وصيناه بإيتاء والديه حسناً، أو بإيلاء والديه حسناً؛ أي: فعلاً ذا حسن، أو ما هو في ذاته حسن لفرط حسنه، كقوله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣] وقرئ: حسناً. وإحساناً. ويجوز أن تجعل (حسناً) من باب قولك: زيدا، بإضمار «أضرب» إذا رأيت مهيناً للضرب، فتنصبه بإضمار أولهما. أو افعل بهما، لأن التوصية بهما دالة عليه، وما بعده مطابق له، كأنه قال: قلنا أوليها معروفاً و﴿تُطْعَمُهُمَا﴾ في الشرك إذا حملك عليه. وعلى هذا التفسير إن وقف على (بوالديه) وابتدأ (حسناً) حسن الوقف، وعلى التفسير الأول لا بد من إضمار القول، معناه: وقلنا إن جاهداك أيها الإنسان ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ أي لا علم لك بالهيتة. والمراد بنفي العلم: نفي المعلوم، كأنه قال: لتشكر بي شيئاً لا يصح أن يكون إلهاً ولا يستقيم: وصاه بوالديه وأمره بالإحسان إليهما، ثم نبه بنهيه عن طاعتهما إذا أراد علي ما ذكر، علي أن كل حق وإن عظم ساقط إذا جاء حق الله، وأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، ثم قال: إلي مرجع من آمن منكم ومن أشرك، فأجازيكم حق جزائكم. وفيه شيثان، أحدهما: أن الجزاء إلي، فلا تحدث نفسك بجفوة والديك وعقوقهما لشركهما، ولا تحرمهما برك ومعروفك في الدنيا، كما أني لا أمنعهما رزقي. والثاني: التحذير من متابعتهما على الشرك، والحث على الثبات والاستقامة في الدين بذكر المرجع والوعيد. روي أن سعد بن أبي وقاص الزهري - رضي الله عنه - حين أسلم قالت أمه - وهي حمته بنت أبي سفيان بن أمية بن عبد شمس - يا سعد، بلغني أنك قد صبأت، فوالله لا يظلني سقف بيت من الضح^(١) والريح؛ وإن الطعام والشراب علي حرام حتى تكفر بمحمد - وكان أحب ولدها إليها - فأبى سعد وبقيت ثلاثة أيام كذلك، فجاء سعد إلى رسول الله - ﷺ - وشكا إليه، فنزلت هذه الآية والتي في لقمان والتي في الأحقاف، فأمره رسول الله - ﷺ - أن يداريها ويترضاها بالإحسان (١١١٨). وروي أنها نزلت في عياش بن أبي ربيعة المخزومي، وذلك أنه هاجر مع عمر بن الخطاب - رضي الله عنهما - مترافقين

١١١٨ - قال الزيلعي في «تخريج الكشاف» (٤٠/٣ - ٤١) غريب وبهذا اللفظ وذكره الثعلبي في «تفسيره» والواحد في «أسباب النزول» بلفظ المصنف سواء من غير سند ولا راو. وينظر أسباب النزول للواحد (ص ٣٥١).

والحديث أصله في صحيح مسلم (٤/١٨٧٧) كتاب فضائل الصحابة: حديث (٤٣ - ٤٤/١٧٤٨). قال الحافظ في تخريج الكشاف: ذكره الواحدي والثعلبي والواقدي هكذا بغير سند والقصة في صحيح مسلم من حديث سعد بن أبي وقاص بغير هذا السياق. انتهى.

(١) قوله «من الضح» في الصحاح «الضح»: الشمس. وفي الحديث: «لا يقعدن أحدكم بين الضح والظل، فإنه مقعد الشيطان» اهـ. (ع)

حتى نزلا المدينة، فخرج أبو جهل بن هشام والحارث بن هشام - أخواه لأمه أسماء بنت مخزومة: امرأة من بني تميم من بني حنظلة - فنزلا بعايش وقالوا له: إن من دين محمد صلة الأرحام وبر الوالدين، وقد تركت أمك لا تطعم ولا تشرب ولا تأوي بيتاً حتى تراك، وهي أشد حياً لك منا فاخرج معنا، وقتلا منه في الذروة والغارب^(١) فاستشار عمر - رضي الله عنه - فقال: هما يخدعانك ٨٣/٢ب، ولك عليّ أن أقسم مالي بيني وبينك، فما زالا به حتى أطاعهما وعصى عمر، فقال له عمر: أما إذا عصيتني فخذ ناقتي، فليس في الدنيا بعير يلحقها، فإن رابك منهما ريب فارجع، فلما انتهوا إلى البيداء قال أبو جهل: إن ناقتي قد كلت فاحملني معك. قال: نعم، فنزل ليوطىء لنفسه وله، فأخذه وشده وثاقاً، وجلده كل واحد منهما مائة جلدة، وذهبا به إلى أمه فقالت: لا تزال في عذاب حتى ترجع عن دين محمد، فنزلت (١١١٩).

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾ (٩)

﴿فِي الصَّالِحِينَ﴾ في جملتهم. والصلاح من أبلغ صفات المؤمنين، وهو متمنى أنبياء الله. قال الله تعالى حكاية عن سليمان عليه السلام ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل: ١٩] وقال في إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [البقرة: ١٣٠] أو في مدخل الصالحين وهي الجنة، وهذا نحو قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [النساء: ٦٩] الآية.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَمَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ

١١١٩ - أخرجه ابن إسحاق في «سيرته» (٩٣/٢ - سيرة ابن هشام) ومن طريق ابن إسحاق أخرجه البزار (٣٠٢/٢ - ٣٠٤) من طريق نافع عن ابن عمر عن عمر بن الخطاب به وقال البزار: لا نعلم رواه عن النبي - ﷺ - إلا عمر ولا نعلم روي متصلاً عن عمر إلا بهذا الإسناد. والحديث ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥٨/٦) وقال: رواه البزار ورجاله ثقات. اهـ. قال الحافظ في «تخريج الكشاف»: تقدم الكلام عليه في سورة النساء وهذا السياق أورده الثعلبي عن مقاتل وسنده إليه في أول كتابه وأخرجه ابن إسحاق في المغازي ومن طريقه البزار قال: حدثني نافع عن ابن عمر عن عمر مطولاً. قال الحافظ في «تخريج الكشاف»: تقدم الكلام عليه في سورة النساء وهذا السياق أورده الثعلبي عن مقاتل وسنده إليه في أول كتابه. وأخرجه ابن إسحاق في المغازي ومن طريقه البزار قال: حدثني نافع عن ابن عمر عن عمر مطولاً. انتهى.

(١) قوله «وقتلا منه في الذروة والغارب» في الصحاح: ما زال فلان يقتل من فلان في الذروة والغارب، أي: يدور من وراء خديعته. (ع)

نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾

وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴿١١﴾

هم ناس كانوا يؤمنون بألسنتهم، فإذا مسهم أذى من الكفار وهو المراد بفتنة الناس، كان ذلك صارفاً لهم عن الإيمان، كما أن عذاب الله صارف للمؤمنين عن الكفر. أو كما يجب أن يكون عذاب الله صارفاً. وإذا نصر الله المؤمنين وغنمهم اعتراضهم وقالوا ﴿إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ أي مشايعين لكم في دينكم، ثابتين عليه ثباتكم، ما قدر أحد أن يفتتنا، فأعطونا نصيبنا من المغنم. ثم أخبر سبحانه أنه أعلم ﴿بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾ من العالمين بما في صدورهم، ومن ذلك ما تكن صدور هؤلاء من النفاق، وهذا إطلاع منه للمؤمنين على ما أبطنوه، ثم وعد المؤمنين وأوعد المنافقين. وقرئ: ليقولن، بفتح اللام.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ

خَطَايَهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَنْفَالًا مَّعَ أَنْفَالِهِمْ وَلَيْسَتُنَّ يَوْمَ

الْفَيْكَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْقَرُونَ ﴿١٣﴾﴾

أمروهم باتباع سبيلهم وهي طريقتهم التي كانوا عليها في دينهم، وأمروا أنفسهم بحمل خطاياهم فغطف الأمر على الأمر، وأرادوا: ليجتمع هذان الأمران في الحصول أن تتبعوا سبيلنا وأن نحمل خطاياكم. والمعنى: تعليق الحمل بالاتباع، وهذا قول صناديد قريش: كانوا يقولون لمن آمن منهم: لا نبعث نحن ولا أنتم، فإن عسى كان ذلك فإننا نتحمل عنكم الإثم. ونرى في المتسمين بالإسلام من يستن بأولئك يقول لصاحبه - إذا أراد أن يشجعه على ارتكاب بعض العظائم -: افعل هذا وإثمه في عنقي. وكم من مغرور بمثل هذا الضمان من ضعفة العامة وجهلتهم - ومنه ما يحكى أن أبا جعفر المنصور رفع إليه بعض أهل الحشو حوائجه، فلما قضاها قال: يا أمير المؤمنين، بقيت الحاجة العظمى. قال: وما هي؟ قال شفاعتك يوم القيامة، فقال له عمرو بن عبيد رحمه الله: إياك وهؤلاء، فإنهم قطاع الطريق في المأمن^(١). فإن قلت: كيف سماهم كاذبين، وإنما ضمنوا شيئاً

(١) قال محمود: «وبعض المتسمين بالإسلام إذا أراد أن يشجع صاحبه على ذنب قال له: افعل هذا وإثمه في عنقي. ومنه ما يحكى أن رجلاً رفع إلى المنصور حوائجه فلما قضاها، قال يا أمير المؤمنين، بقيت لي إليك حاجة هي العظمى. قال: وما هي؟ قال: شفاعتك في المحشر. فقال عمرو: يا أمير المؤمنين، إياك وهؤلاء فهم قطاع الطريق في المأمن» قال أحمد: عمرو بن عبيد أول القدرية المنكرين للشفاعة فاحذره، وليست الآية مطابقة للحكاية، ولكن الزمخشري يبيّن على أنه لا فرق بين اعتقاد الشفاعة واعتقاد أن الكفار يحملون خطايا أتباعهم، فلذلك ساقهما مساقاً واحداً نعوذ =

علم الله أنهم لا يقدرّون على الوفاء به، وضامن ما لا يعلم اقتداره على الوفاء به، لا يسمى كاذباً لا حين ضمن ولا حين عجز، لأنه في الحالين لا يدخل تحت حدّ الكاذب وهو المخبر عن الشيء لا على ما هو عليه؟ قلت: شبه الله حالهم حيث علم أن ما ضمنوه لا طريق لهم إلى أن يفوا به، فكان ضمانهم عنده لا على ما عليه المضمون بالكاذبين الذين خبرهم لا على ما عليه المخبر، عنه. ويجوز أن يريد أنهم كاذبون، لأنهم قالوا ذلك وقلوبهم على خلافه، كالكاذبين الذين يعدون الشيء وفي قلوبهم نية الخلف ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ﴾ أي أثقال أنفسهم ﴿وَأَثْقَالَ﴾ يعني أثقالاً آخر غير الخطايا التي ضمنوا للمؤمنين حملها، وهي أثقال الذين كانوا سبباً في ضلالهم ﴿وَلَيَسْتَلْزَمُنَّ﴾ سؤال تفرّيع ﴿عَمَّا كَانُوا يَفْعُرُونَ﴾ أي يختلقون من الأكاذيب والأباطيل. وقرئ: من خطيئاتهم.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ (١٤) فَأَجْبِنُهُ وَأَصْحَبَ السَّيْفِينَةَ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾

كان عمر نوح عليه السلام ألفاً وخمسين سنة، بعث على رأس أربعين، وليث في قومه تسعمائة وخمسين، وعاش بعد الطوفان ستين. وعن وهب: أنه عاش ألفاً وأربعمئة سنة. فإن قلت: هلا قيل تسعمائة وخمسين سنة؟ قلت: ما أورده الله أحكم. لأنه لو قيل كما قلت، لجاز أن يتوهم إطلاق هذا العدد على أكثره، وهذا التوهم زائل مع مجيئه كذلك، وكأنه قيل: تسعمائة وخمسين سنة كاملة وافية العدد، إلا أن ذلك أخضر وأعذب لنظراً وأملاً بالفائدة^(١)، وفيه نكتة أخرى: وهي أن القصة مسوقة لذكر ما ابتلي به نوح عليه السلام من أمته وما كابده من طول المصابرة، تسلية لرسول الله - ﷺ - وتشبيهاً له، فكان ذكر رأس العدد الذي لا رأس أكثر منه، أوقع وأوصل إلى الغرض من استطالة السامع مدة صبره ١٨٤/٢. فإن قلت: فلم جاء المميز أولاً بالسنة وثانياً بالعام؟ قلت: لأن تكرير اللفظ الواحد في الكلام الواحد حقيق بالاجتناب في البلاغة، إلا إذا وقع ذلك لأجل غرض ينتحيه المتكلم من تفخيم أو تهويل^(٢) أو تنويه أو نحو ذلك. و﴿الطُّوفَانُ﴾ ما أطاف

= بالله من ذلك. وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ نكتة حسنة يستدل بها على صحة مجيء الأمر بمعنى الخبر، فإن من الناس من أنكره والتزم تخريج جميع ما ورد في ذلك على أصل الأمر، ولم يتم له ذلك في هذه الآية، لأن الله تعالى أردف قولهم: ولنحمل خطاياكم، على صيغة الأمر بقوله: ﴿إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ والتكذيب إنما يتطرق إلى الأخبار.

(١) قال محمود: «عدل عن تسعمائة وخمسين لأنه يحتمل فيه إطلاق العدد على أكثره بخلاف مجيئه مع الاستثناء» قال أحمد: لأن الاستثناء استدراك ورجوع على الجملة بالتنقيص، تحريراً للعدد، فلا يحتمل المبالغة لأنها لا يجوز معها العدد.

(٢) عاد كلامه. قال: «وفيه نكتة أخرى» وهي أن القصة مسوقة لذكر ما ابتلي به نوح وكابده من طول =

وأحاط بكثرة وغلبة، من سيل أو ظلام ليل أو نحوهما؛ قال العجاج [من الرجز]:

..... وَغَمٌ طُوفَانُ الظُّلَامِ الأَثَابِ^(١)

﴿وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ﴾ كانوا ثمانية وسبعين نفساً: نصفهم ذكور، ونصفهم إناث، منهم أولاد نوح عليه السلام: سام، وحام، ويافث، وناوهم. وعن محمد بن إسحاق: كانوا عشرة. خمسة رجال وخمس نسوة. وقد روي عن النبي ﷺ «كانوا ثمانية: نوح وأهله وبنوه الثلاثة» (١١٢٠) والضمير في ﴿وَجَعَلْنَاهَا﴾ للسفينة أو للحادثة والقصة.

﴿وإبراهيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٦﴾

إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا

يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَأَشْكُرُوا لَهُ ۗ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِنْ

تَكذَّبْتُمْ فَتَقَدَّرَ عَلَيْكُمْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٨﴾

نصب ﴿وإبراهيمَ﴾ بإضمار اذكر، وأبدل عنه ﴿إِذْ﴾ بدل الاشتمال؛ لأن الأحيان تشتمل على ما فيها. أو هو معطوف على (نوحا) وإذ ظرف لأرسلنا، يعني: أرسلناه حين بلغ من السن والعلم مبلغاً صالح فيه لأن يعظ قومه وينصحهم ويعرض عليهم الحق ويأمرهم بالعبادة والتقوى وقرأ إبراهيم النخعي وأبو حنيفة رحمهما الله. وإبراهيم، بالرفع على معنى: ومن المرسلين إبراهيم ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ يعني: إن كان فيكم علم بما هو خير لكم مما هو شر لكم. أو إن نظرتم بعين الدراية المبصرة دون عين الجهل العمياء:

١١٢٠ - تقدم تخريجه في سورة هود.

= المصابرة، تسلية له عليه السلام فكان ذكر رأس العدد الذي لا رأس أكثر منه أوقع على الغرض. قال: وإنما خالف بين اللفظين فذكر في الأول السنة وفي الثاني العام، تجنبنا للتكرار الذي لا يحمد إلا لقصد تفخيم أو تعظيم، قال أحمد: ولو فخم المستثنى لعاد ذلك ببعض تفخيم المستثنى منه وتكبيره عند السامع، والله أعلم.

(١) حتى إذا ما يومها تصببا وغم طوفان الظلام الأثاب

للعجاج يصف بقرة وحشية. وما: زائدة. ويروي: عم، بالمهمله وبالمعجمة، والمعنيان متقاربان. والطوفان: كل ما طاف حول الشيء وأحاط به من ظلام أو ماء أو نحوهما. والأثاب: نوع من الشجر يشبه شجر التين، الواحدة: أثابة ونسبة التصيب لليوم: مجاز عقلي من باب الإسناد للزمان. أو على تقدير التمييز، أي: تصبب مطراً، وستر ظلامه الشجر الذي كانت فيه.

ينظر: ملحق ديوانه ٢٦٨/٢، ولسان العرب (صبب)، (طوف)، وتاج العروس (طوف)، وبلا نسبة في مقاييس اللغة ٤٣٢/٣، والمخصّص ١٢٩/٩، وديوان الأدب ٣٨٦/٣، وتهذيب اللغة ١٤/٣٣، وتاج العروس (أدى).

علمتم أنه خير لكم: وقرئ: تخلقون من خلق بمعنى التكثير في خلق. وتخلقون، من تخلق بمعنى تكذب وتخرص. وقرئ: إفكا، فيه وجهان: أن يكون مصدراً، نحو: كذب ولعب، والإفك: مخفف منه، كالكذب واللعب من أصلهما، وأن يكون صفة على فعل، أي خلقاً إفكا، أي ذا إفك وباطل. واختلافهم الإفك: تسميتهم الأوثان آلهة وشركاء الله أو شفعاء إليه. أو سمى الأصنام: إفكا، وعملهم لها ونحتهم: خلقاً للإفك. فإن قلت: لم نكر الرزق ثم عرفه؟ قلت: لأنه أراد لا يستطيعون أن يرزقوكم شيئاً من الرزق، فابتغوا عند الله الرزق كله. فإنه هو الرزاق وحده لا يرزق غيره ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وقرئ: بفتح التاء، فاستعدوا للقائه بعبادته والشكر له على أنعمه، وإن تكذبونني فلا تضرونني بتكذيبكم، فإن الرسل قبلي قد كذبتهم أممهم، وما ضرّوهم وإنما ضرّوا أنفسهم، حيث حلّ بهم ما حلّ بسبب تكذيب الرسل: وأما الرسول فقد تم أمره حين بلغ البلاغ المبين الذي زال معه الشكّ، وهو اقترانه بآيات الله ومعجزاته. أو: وإن كنت مكذباً فيما بينكم فلي في سائر الأنبياء أسوة وسلوة حيث كذبوا، وعلى الرسول أن يبلغ وما عليه أن يصدق ولا يكذب، وهذه الآية والآيات التي بعدها إلى قوله: ﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ [العنكبوت: ٢٤] محتملة أن تكون من جملة قول إبراهيم صلوات الله عليه لقومه، وأن تكون آيات وقعت معترضة في شأن رسول الله - ﷺ - وشأن قريش بين أول قصة إبراهيم وآخرها. فإن قلت: إذا كانت من قول إبراهيم فما المراد بالأمم قبله؟ قلت: قوم شيث وإدريس ونوح وغيرهم، وكفى بقوم نوح أمة في معنى أمم جمّة مكذبة، ولقد عاش إدريس ألف سنة في قومه إلى أن رفع إلى السماء. وآمن به ألف إنسان منهم على عدد سنه، وأعقابهم على التكذيب.

﴿وَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (١٩) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يَعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا أَنشَأَ الْمُعْجِزَاتِ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾

فإن قلت: فما تصنع بقوله: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾؟ قلت: هي حكاية كلام حكاة إبراهيم عليه السلام لقومه، كما يحكي رسولنا كلام الله على هذا المنهاج في أكثر القرآن فإن قلت: فإذا كانت خطاباً لقريش ما وجه توسطهما بين طرفي قصة إبراهيم والجملة أو الجمل الاعترافية لا بد لها من اتصال بما وقعت معترضة فيه ألا تراك لا تقول: مكة - وزيد أبوه قائم - خير بلاد الله؟ قلت: إيراد قصة إبراهيم ليس إلا إرادة

للتنفيس عن رسول الله - ﷺ - ، وأن تكون مسلاة له ومتفرجاً بأن أباه إبراهيم خليل الله كان ممنوناً بنحو ما مني^(١) به من شرك قومه وعبادتهم الأوثان، فاعترض بقوله: وإن تكذبوا، على معنى إنكم يا معشر قريش إن تكذبوا محمداً فقد كذب إبراهيم قومه وكل أمة نبيها؛ لأن قوله: ﴿فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾ لا بد من تناوله لأمة إبراهيم، وهو كما ترى اعتراض واقع^(٢) متصل، ثم سائر الآيات الواطئة عقبها من أذيالها وتوابعها، لكونها ناطقة بالتوحيد ودلائله، وهدم الشرك وتوهين قواعده، وصفة ٢/ ٨٤ بقدرة الله وسلطانه، ووضوح حجته وبرهانه. وقرئ (يروا) بالياء والتاء. ويبدىء ويبدأ. وقوله: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ ليس بمعطوف على يبدىء، وليست الرؤية واقعة عليه، وإنما هو إخبار على حياله بالإعادة بعد الموت، كما وقع النظر في قوله تعالى: ﴿فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ﴾ على البدء دون الإنشاء، ونحوه قولك: ما زلت أوتر فلاناً وأستخلفه على من أخلفه^(٣). فإن قلت: هو معطوف بحرف العطف، فلا بد له من معطوف عليه، فما هو؟ قلت: هو جملة قوله ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ﴾ وكذلك: وأستخلفه، معطوف على جملة قوله: ما زلت أوتر فلاناً ﴿ذَلِكَ﴾ يرجع إلى ما يرجع إليه هو في قوله: ﴿وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧] من معنى يعيد. دل بقوله ﴿النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ﴾ على أنهما نشأتان، وأن كل واحدة منهما إنشاء، أي: ابتداء واختراع، وإخراج من العدم إلى الوجود، لا تفاوت بينهما إلا أن الآخرة إنشاء بعد إنشاء مثله، والأولى ليست كذلك. وقرئ: النشأة والنشأة، كالرأفة والرأفة. فإن قلت: ما معنى الإفصاح باسمه مع إيقاعه مبتدأ في قوله: ﴿ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ﴾ بعد إضماره في قوله: كيف بدأ الخلق؟ وكان القياس أن يقال: كيف بدأ الله الخلق ثم ينشئ النشأة الآخرة؟ قلت: الكلام معهم كان واقعاً في الإعادة، وفيها كانت تصطك الركب، فلما قررهم في الإبداء بأنه من الله، احتج عليهم بأن الإعادة إنشاء مثل الإبداء، فإذا كان الله الذي لا يعجزه شيء هو الذي لم يعجزه الإبداء، فهو الذي

(١) قوله «كان ممنوناً بنحو ما مني به» أي: مبتلى. في الصحاح: منوته ومنيته، إذا ابتليته. (ع)

(٢) قوله «وهو كما ترى اعتراض واقع» لعله: واقع موقعه. (ع)

(٣) قال محمود: «يعيده ليس معطوفاً على يبدىء، وإنما هو إخبار على حياله، كما وقع ﴿كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة﴾ كقولك ما زلت أوتر فلاناً وأستخلفه بعدي» قال أحمد: وقد تقدم له عند قوله تعالى: ﴿أمن يبدأ الخلق ثم يعيده﴾ أنه معطوف، وصحح العطف - وإن كانوا ينكرون الإعادة - لأن الاعتراف بها لازم لهم، وقد أبى ههنا جعله معطوفاً، فالفرق والله أعلم أنه ههنا لو عطف الإعادة على البداية لدخلت في الرؤية الماضية وهي لم تقع بعد، ولا كذلك في آية النمل، ولقائل أن يقول: هي وإن لم تقع، إلا أنها بإخبار الله تعالى بوقوعها كالواقعة المرئية، فعملت معاملة ما رؤي وشوهد إلا أن جعله خبراً ثانياً أوضح، والله أعلم.

وجب أن لا تعجزه الإعادة^(١)، فكأنه قال: ثم ذاك الذي أنشأ النشأة الأولى هو الذي ينشئ النشأة الآخرة، فللدلالة والتنبيه على هذا المعنى أبرز اسمه وأوقعه مبتدأ ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ تعذيبه ﴿وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ﴾ رحمته، ومتعلق المشيئتين مفسر بين في مواضع من القرآن^(٢) وهو من يستوجبهما من الكافر والفاسق إذا لم يتوبا، ومن المعصوم والتائب ﴿تَقْلُوبًا﴾ تردون وترجعون ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ ربكم أي لا تفوتونه إن هربتم من حكمه وقضائه ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ الفسيحة ﴿وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ التي هي أفسح منها وأبسط لو كنتم فيها، كقوله تعالى: ﴿إِنِ اسْتَفْتَمْتُمْ أَنْ تَقُولُوا مِن قِطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَأَنزَلُوا﴾ [الرحمن: ٣٣]، وقيل: ولا من في السماء^(٣)؛ كما قال حسان - رضي الله عنه - [من الوافر]:

أَمَّنْ يَهْجُو رَسُولَ اللَّهِ مِنْكُمْ وَيَمْدَحُهُ وَيَنْصُرُهُ سِوَاءِ؟^(٤)

ويحتمل أن يراد: لا تعجزونه كيفما هبطتم في مهاوي الأرض وأعماقها، أو علوتم في البروج والقلاع الذاهبة في السماء، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنْتُمْ فِي رُوحٍ مُّسَيِّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨] أو لا تعجزون أمره الجاري في السماء والأرض أن يجري عليكم، فيصيبكم ببلاء يظهر من الأرض أو ينزل من السماء.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَائِبَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ

الْبُيُوتِ

﴿يَتَائِبَاتِ اللَّهِ﴾ بدلالته على وحدانيته وكتبه ومعجزاته ولقائه والبعث ﴿يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي﴾ وعبد، أي ييأسون يوم القيامة، كقوله: ﴿وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ يُبَيِّنُ لِمَنْ جَاءَتْهُمُ الْبُيُوتُ﴾ [الروم: ١٢]. أو هو وصف لحالهم؛ لأن المؤمن إنما يكون راجياً خاشعاً، فأما الكافر فلا يخطر بباليه رجاء ولا خوف. أو شبه حالهم في انتفاء الرحمة عنهم بحال من يش من الرحمة: وعن

(١) قال محمود: «إن قلت ما وجه الإفصاح باسمه تعالى مع النشأة الآخرة، بعد إضماره في البداية أو لا؟ قلت: لأن النشأة الآخرة هي المقصودة وفيها كانت تصطك الركب، فكانت خليفة بإبراز اسمه تعالى تحقيقاً لنسبة الإعادة إلى من نسبت إليه الأولى» قال أحمد: والأصل الإظهار ثم الإضمار، ويليه لقصد التفخيم: الإظهار بعد الإظهار، ويليه وهو أفخم الثلاثة: الإظهار بعد الإضمار كما في الآية، والله أعلم.

(٢) قوله «ومتعلق المشيئتين مفسر بين في مواضع من القرآن» تفسيره بما يأتي مبني على أنه تعالى يجب عليه تعذيب الكافر والفاسق إذا لم يتوبا وإثابة المعصوم والتائب، وهو مذهب المعتزلة. ولا يجب عليه تعالى شيء عند أهل السنة، فالمشيئة في الآية على إطلاقها. (ع)

(٣) قوله «وقيل ولا من في السماء» عبارة الخازن: ولا من في السماء بمعجز. (ع)

(٤) تقدم.

قتادة - رضي الله عنه - : إن الله ذمّ قوماً هانوا عليه فقال: ﴿أُولَئِكَ يَبْهَتُونَ مِنْ رَحْمَتِي﴾ وقال: ﴿إِنَّهُ لَا يَأْتِسُّ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧] فينبغي للمؤمن أن لا يياس من روح الله ولا من رحمته، وأن لا يأمن عذابه وعقابه صفة المؤمن^(١) أن يكون راجياً لله عز وجل خائفاً.

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَجَبَهُ اللَّهُ مِنْ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٢٤)

قرئ ﴿جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ بالنصب والرفع ﴿قَالُوا﴾ قال بعضهم لبعض . أو قاله واحد منهم وكان الباقرن راضين، فكانوا جميعاً في حكم القائلين . وروي أنه لم ينتفع في ذلك اليوم بالنار، نعي: يوم القي إبراهيم في النار، وذلك لذهاب حرها .

﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَأَتِكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ﴾ (٢٥)

قرئ على النصب بغير إضافة وبإضافة، وعلى الرفع كذلك، فالنصب على وجهين: على التعليل، أي لتتوادوا بينكم وتتواصلوا، لاجتماعكم على عبادتهم واتفاقكم عليها واتلافكم، كما يتفق الناس على مذهب فيكون ذلك سبب تحابهم وتصادقهم . وأن يكون مفعولاً ثانياً، كقوله: ﴿اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوْنَةً﴾ [الفرقان: ٤٣] أي اتخذتم الأوثان سبب المودة بينكم، على تقدير حذف المضاف . أو اتخذتموها مودة بينكم، بمعنى مودودة بينكم، كقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] وفي الرفع وجهان: أن يكون خبراً لأن، على أن ما موصولة . وأن يكون خبر مبتدأ محذوف . والمعنى: أن الأوثان مودة بينكم، أي: مودودة، أو سبب مودة . وعن عاصم: مودة بينكم: بفتح بينكم مع الإضافة، كما قرئ ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَرَكَّبْتُمْ مَا حَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ نَقَطَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ زَعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٤] ففتح وهو فاعل ١٨٥/٢ . وقرأ ابن مسعود - رضي الله عنه - : أوثاناً إنما مودة بينكم في الحياة الدنيا، أي: إنما تتوادون عليها، أو تودونها في الحياة الدنيا ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ يقوم بينكم التلاعن والتباغض والتعادي: يتلاعن العبد، ويتلاعن العبد والأصنام، كقوله تعالى: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ صِدْقًا﴾ [مريم: ٨٢] .

(١) قوله «صفة المؤمن» لعله: لأن صفة المؤمن... إلخ. (ع)

﴿فَمَنْ لَّمْ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ﴿٢٦﴾

كان لوط ابن أخت إبراهيم عليهما السلام، وهو أول من آمن له حين رأى النار لم تحرقه ﴿وَقَالَ﴾ يعني إبراهيم ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ﴾ من «كوثي» وهي من سواد الكوفة إلى «حران» ثم منها إلى فلسطين، ومن ثمة قالوا: لكل نبي هجرة ولإبراهيم هجرتان، وكان معه في هجرته: لوط، وامرأته سارة، وهاجر وهو ابن خمس وسبعين سنة ﴿إِلَى رَبِّي﴾ إلى حيث أمرني بالهجرة إليه ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي يمنعني من أعدائي ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي لا يأمرني إلا بما هو مصلحتي.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ﴿٢٧﴾

﴿أَجْرَهُ﴾ الشناء الحسن، والصلاة عليه آخر الدهر والذرية الطيبة والنبوة، وأن أهل الملل كلهم يتولونه. فإن قلت: ما بال إسماعيل عليه السلام لم يذكر، وذكر إسحاق وعقبه؟ قلت: قد دل عليه في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ وكفى الدليل لشهرة أمره وعلو قدره. فإن قلت: ما المراد بالكتاب؟ قلت: قصد به جنس الكتاب، حتى دخل تحته ما نزل على ذريته من الكتب الأربعة؛ التي هي التوراة والزبور والإنجيل والقرآن؟

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَأنتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٢٨﴾ أَيُّكُمْ لَأنتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَيْنَا بِعَدَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾ ﴿٣٠﴾

﴿وَلُوطًا﴾ معطوف على إبراهيم، أو على ما عطف عليه. و﴿الْفَاحِشَةَ﴾ الفعلة البالغة في القبح. و﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ جملة مستأنفة مقررة لفحاشة تلك الفعلة، كأن قائلها قال: لم كانت فاحشة؟ قيل له: لأن أحداً قبلهم لم يقدم عليها اشمزازاً منها في طباعهم لإفراط قبحها، حتى أقدم عليها قوم لوط لخبث طبيعتهم وقدر طباعهم. قالوا: لم ينز ذكر على ذكر قبل قوم لوط قط. وقرئ: إنكم، بغير استفهام في الأول دون الثاني: قال أبو عبيدة: وجدته في الإمام بحرف واحد بغير ياء، ورأيت الثاني بحرفين الياء والنون وقطع السبيل: عمل قطاع الطريق، من قتل الأنفس وأخذ الأموال. وقيل: اعتراضهم السابلية بالفاحشة. وعن الحسن: قطع النسل بإتيان ما ليس بحرث. و﴿الْمُنْكَرُ﴾ عن ابن عباس - رضي الله عنهما - هو الحذف بالحصى، والرمي بالبندق،

والفرقة، ومضع العلك، والسواك بين الناس، وحل الأزرار، والسباب، والفحش في المزاج. وعن عائشة - رضي الله عنها -: كانوا يتحابون^(١). وقيل السخرية بمن مرّ بهم. وقيل: المجاهرة في ناديهم بذلك العمل، وكل معصية فأظهارها أقيح من سترها، ولذلك جاء: من خرق جلباب الحياء فلا غيبة له. ولا يقال للمجلس: ناد، إلا ما دام فيه أهله، فإذا قاموا عنه لم يبق نادياً ﴿إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصّٰدِقِيْنَ﴾ فيما تعدناه من نزول العذاب. كانوا يفسدون الناس بحملهم على ما كانوا عليه من المعاصي والفواحش طوعاً وكرهاً ولأنهم ابتدعوا الفاحشة وسنوها فيمن بعدهم، وقال الله تعالى: ﴿الَّذِيْنَ كَفَرُوْا وَكَذَّبُوْا عَنْ سَبِيْلِ اللّٰهِ يَذُنُّهُمْ عَذَابًا قَوْفًا اَلْعَذَابِ يَمَا كَانُوْا يُفْسِدُوْنَ﴾ [النحل: ٨٨] فأراد لوط عليه السلام أن يشتد غضب الله عليهم، فذكر لذلك صفة المفسدين في دعائه.

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا اِبْرٰهِيْمَ بِالْبَشْرٰى قَالُوْا اِنَّا مُهْلِكُوْا اَهْلَ هٰذِهِ الْقَرْيَةِ اِنَّ اَهْلَهَا كَانُوْا ظٰلِمِيْنَ﴾ (٢١) قَالَ اِنَّ فِيْهَا لُوْطًا قَالُوْا نَحْنُ اَعْلَمُ بِمَنْ فِيْهَا لَنَنْجِيْنَهُ وَاَهْلَهُ اِلَّا اَمْرٰتَهُمْ كَانَتْ مِنَ الْغٰلِيِيْنَ﴾ (٢٢)

﴿بِالْبَشْرَى﴾ هي البشارة بالولد. والنافلة: وهما إسحاق ويعقوب. وإضافة مهلكوا إضافة تخفيف لا تعريف. والمعنى الاستقبال. والقرية: سدوم التي قيل فيها: أجور من قاضى سدوم ﴿كَانُوا ظٰلِمِيْنَ﴾ معناه أن الظلم قد استمر منهم إيجاده في الأيام السالفة، وهم عليه مصرون، وظلمهم: كفرهم وألوان معاصيهم ﴿اِنَّ فِيْهَا لُوْطًا﴾ ليس إخباراً لهم بكونه فيها، وإنما هو جدال في شأنه؛ لأنهم لما عللوا إهلاك أهلها بظلمهم: اعترض عليهم بأن فيها من هوى بريء من الظلم، وأراد بالجدال: إظهار الشفقة عليهم. وما يجب للمؤمن من التحزن لأخيه، والتشمر في نصرته وحياطته، والخوف من أن يمسه أذى أو يلحقه ضرر. قال قتادة: لا يرى المؤمن ألا يحوط المؤمن، ألا ترى إلى جوابهم بأنهم أعلم منه ﴿بِمَنْ فِيْهَا﴾ يعنون: نحن أعلم منك وأخبر بحال لوط وحال قومه، وامتيازه منهم الامتياز البين، وأنه لا يستأهل ما يستأهلون، فخفض على نفسك وهون عليك الخطب. وقرئ: (لننجينه) بالتشديد والتخفيف، وكذلك منجوك.

﴿وَلَمَّا اَنَّ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوْطًا سِٔءَ يٰهٖمْ وَضَاقَ يٰهٖمْ ذَرْعًا وَقَالُوْا لَا نَحْفَ وَلَا نَحْزَنُ اِنَّا

(١) قوله «كانوا يتحابون» في الصحاح «الحب» بالكسر: الردام. وفيه أيضاً «الردام» بالضم: الحب اهـ، وهو دور فلينظر حله، ثم رأيت فيه في مادة «ضراط» الضراط: الردام، وقد ضراط يضراط ضراطاً بكسر الراء، مثال: حبق يحبق حبقاً اهـ. فالتحابق: المضارطة، كما عبر النسفي. (ع)

مُنْجُوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرَاتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٢٣﴾ ٨٥/٢ ب

﴿أَنْ﴾ صلة أكدت وجود الفعلين مترتباً أحدهما على الآخر في وقتين متجاورين لا فاصل بينهما؛ كأنهما وجدا في جزء واحد من الزمان، كأنه قيل: كما أحس بمجيئهم فاجأته المساءة من غير ريث^(١)، خيفة عليهم من قومه ﴿وَصَافٍ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ وضايق بشأنهم ويتدبير أمرهم ذرعه أي طاقته، وقد جعلت العرب ضيق الذراع والذرع: عبارة عن فقد الطاقة، كما قالوا: رحب الذراع بكذا، إذا كان مطيقاً له، والأصل فيه أن الرجل إذا طالت ذراعه نال ما لا يناله القصير الذراع، فضرب ذلك مثلاً في العجز والقدرة.

﴿إِنَّا مُنْزِلُونَكَ عَلَىٰ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٢٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٥﴾﴾

الرجز والرجس: العذاب، من قولهم: ارتجز وارتجس إذا اضطرب، لما يلحق المعذب من القلق والاضطراب. وقرئ: ﴿مُنْزِلُونَكَ﴾ مخففاً ومشدداً ﴿مِنْهَا﴾ من القرية ﴿آيَةً بَيِّنَةً﴾ هي آثار منازلهم الخربة. وقيل: بقية الحجارة. وقيل: الماء الأسود على وجه الأرض. وقيل: الخبر عما صنع بهم ﴿لِقَوْمٍ﴾ متعلق بتركنا أو بيينة.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَنْقُورِ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذْتَهُمُ الرِّجْفَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِينًا ﴿٢٧﴾﴾

﴿وَارْجُوا﴾ وافعلوا ما ترجون به العاقبة. فأقيم المسبب مقام السبب. أو أمروا بالرجاء: والمراد: اشتراط ما يسوغه من الإيمان، كما يؤمر الكافر بالشرعيات على إرادة الشرط. وقيل: هو من الرجاء بمعنى الخوف. والرجفة: الزلزلة الشديدة. وعن الضحاك: صيحة جبريل عليه السلام؛ لأن القلوب رجفت لها ﴿فِي دَارِهِمْ﴾ في بلدهم وأرضهم. أو في ديارهم، فاكتمى بالواحد لأنه لا يلبس ﴿جَنِينًا﴾ باركين على الركب ميتين.

﴿وَعَادًا وَنَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسْجِدِهِمْ وَرَبِّكَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلُهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٢٨﴾﴾

﴿وَعَادًا﴾ منصوب بإضمار «أهلكنا» لأن قومه: ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الرِّجْفَ﴾ يدل عليه، لأنه في معنى الإهلاك ﴿وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ﴾ ذلك: يعني ما وصفه من إهلاكهم ﴿وَمِنْ﴾ جهة

(١) قوله «من غير ريث» أي ببطء. (ع)

﴿مَسْكِينِهِمْ﴾ إذا نظرتم إليها عند مروركم بها. وكان أهل مكة يمشون عليها في أسفارهم فيبصرونها ﴿وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ عقلاء متمكنين من النظر والافتكار، ولكنهم لم يفعلوا. أو كانوا متبينين أن العذاب نازل بهم لأن الله تعالى قد بين لهم على السنة الرسل عليهم السلام، ولكنهم لجوا حتى هلكوا.

﴿وَقَرُونَكُمْ وَفَرَعُونَ وَهَمَدٌ وَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ﴿٣٦﴾﴾

﴿سَابِقِينَ﴾ فاتنين: أدركمهم أمر الله فلم يفوتوه.

﴿فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِمْ فَمِنْهُمْ مَن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَن أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَن خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَن أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾﴾

الحاصب: لقوم لوط، وهي ريح عاصف فيها حصباء. وقيل: ملك كان يرميهم. والصيحة: لمدين وشمود. والخسف: لقارون. والغرق: لقوم نوح وفرعون.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنَ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُدْعُونَ مِنْ دُونِهِ، مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾﴾

الغرض تشبيه ما اتخذوه متكلاً ومتعمداً في دينهم وتولوه من دون الله، بما هو مثل عند الناس في الوهن وضعف القوة. وهو نسج العنكبوت. ألا ترى إلى مقطع التشبيه وهو قوله: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ﴾؟ فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ وكل أحد يعلم وهن بيت العنكبوت؟ قلت: معناه لو كانوا يعلمون أن هذا مثلهم وأن أمر دينهم بالغ هذه الغاية من الوهن. ووجه آخر: وهو أنه إذا صح تشبيه ما اعتمده في دينهم ببيت العنكبوت، وقد صح أن أوهن البيوت بيت العنكبوت، فقد تبين أن دينهم أوهن الأديان لو كان يعلمون. أو أخرج الكلام بعد تصحيح التشبيه مخرج المجاز، فكأنه قال: وإن أوهن ما يعتمد عليه في الدين عبادة الأوثان لو كانوا يعلمون. ولقائل أن يقول: مثل المشرك الذي يعبد الوثن بالقياس إلى المؤمن الذي يعبد الله، مثل عنكبوت يتخذ بيتاً، بالإضافة إلى رجل يبني بيتاً بأجر وجص أو ينحته من صخر، وكما أن أوهن البيوت إذا استقرتها بيتاً بيتاً بيت العنكبوت، كذلك أضعف الأديان إذا استقرتها ديناً ديناً عبادة الأوثان لو كان يعلمون. قرئ: تدعون، بالتاء والياء. وهذا توكيد للمثل وزيادة

عليه، حيث لم يجعل ما يدعونه شيئاً ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ فيه تجهيل لهم حيث عبدوا ما ليس بشيء؛ لأنه جماد ليس معه مصحح العلم والقدرة أصلاً، وتركوا عبادة القادر القاهر على كل شيء، الحكيم الذي لا يفعل شيئاً إلا بحكمة وتدبير.

﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ (٤٣)

كان الجهلة والسفهاء من قريش يقولون إن رب محمد يضرب المثل بالذباب والعنكبوت، ويضحكون من ذلك، فلذلك قال: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ أي لا يعقل صحتها وحسنها وفائدتها إلا هم، لأن الأمثال والتشبيهات إنما هي الطرق إلى المعاني المحتجبة في الأستار حتى تبرزها وتكشف عنها وتصورها للأفهام، كما صور هذا التشبيه الفرق بين حال المشرك وحال الموحد وعن النبي ﷺ أنه تلا هذه الآية فقال: «العالم من عقل عن الله فعمل بطاعته واجتنب سخطه» (١١٢١).

﴿حَقَّقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٤٤)

١١٢١ - أخرجه داود بن المحبر في «كتاب العقل» كما في «تخريج الزيلعي» (٤٣/٣) حدثنا عباد بن كثير عن ابن جريج عن عطاء وأبي الزبير عن جابر به. وعنه الحارث بن أبي أسامة كما في «المطالب العالية» (٢١٤/٣) رقم (٣٢٩٤). ومن طريقهما أخرجه أيضاً الواحدي في «الوسيط» (٤٢٠/٣). ورواه ابن حجر قال الحافظ: متروك أكثر كتاب العقل الذي صنفه موضوعات. ينظر التقريب (١/٣٢٤).

قال الزيلعي في «تخريج الكشاف» (٤٣/٣).

وذكره ابن الجوزي في الموضوعات، ونقل عن الدارقطني أنه قال: كتاب العقل وضعه أربعة: أولهم ميسرة بن عبد ربه، ثم سرقه داود بن المحبر منه، فركبه بأسانيد غير أسانيد ميسرة، وسرقه عبد العزيز بن أبي رجاء، فركبه بأسانيد آخر، ثم سرقه سليمان بن عيسى السجزي؛ فأتى بأسانيد آخر. انتهى.

وقال الشيخ شرف الدين الدمياطي: روي من طريق داود بن المحبر، ثنا هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة قالت: أسقطت سقطاً، فسماه عبد الله، وكناني بأب عبد الله، داود بن المحبر قال فيه أحمد: شبه لا شيء لا يدري ما الحديث، وقال البخاري: منكر الحديث، وقال ابن معين: ليس بكذاب، ولكنه جفا الحديث وتعبد فلما كبر؛ كثر خطؤه وتصحيحه إلا أنه ثقة، وقال ابن عدي له كتاب في العقل، فيه أحاديث منكرة، وله خارج كتاب العقل أحاديث صالحة ويشبه أن يكون الأمر فيه كما قال ابن معين: وهو في الأصل صدوق. انتهى كلامه.

قال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه داود بن المحبر في كتاب العقل والحارث بن أبي أسامة في مسنده عنه من حديث جابر، وأخرجه من طريق الحارث الثعلبي والواحدي: والبغوي، وذكره ابن الجوزي في الموضوعات. انتهى.

﴿يَالْحَقِّ﴾ أي بالفرض الصحيح^(١) الذي هو حق لا باطل، وهو أن تكونا مساكن عباده وعبرة للمعتبرين منهم، ودلائل على عظم قدرته: ألا ترى إلى قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ ونحوه قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا﴾ [ص: ٢٧] ثم قال: ﴿ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

﴿أَتَلُّ مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ۖ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ ﴿٤٥﴾

الصلاة تكون لطفاً في ترك المعاصي، فكأنها ناهية عنها. فإن قلت: كم من مصل يرتكب ولا تنهيه صلاته؟ قلت الصلاة التي هي الصلاة عند الله المستحق بها الثواب: أن يدخل فيها مقدماً للتوبة النصوح، متقبلاً؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ ويصليها خاشعاً بالقلب والجوارح، فقد روي عن حاتم: كأن رجلي على الصراط والجنة عن يميني والنار عن يساري وملك الموت من فوقي، وأصلي بين الخوف والرجاء؛ ثم يحوطها بعد أن يصليها فلا يحبطها، فهي الصلاة التي تنهى عن الفحشاء والمنكر. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: من لم تأمره صلاته بالمعروف وتنهيه عن المنكر لم يزد بصلاته من الله إلا بعداً (١١٢٢). وعن الحسن رحمه الله: من لم تنهيه صلاته عن الفحشاء

١١٢٢ - أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٥٤/١١) رقم (١١٠٢٥) وابن أبي حاتم في «تفسيره» كما في «تفسير ابن كثير» (٤١٤/٢) من طريق ليث عن طاوس عن ابن عباس مرفوعاً. وليث هو ابن أبي سليم صدوق اختلط أخيراً ولم يتميز حديثه فترك كما قال الحافظ. والحديث ذكره العراقي في «تخريج الإحياء» (١٤٣/١): إسناده لين. وقد ورد هذا الحديث موقوفاً على ابن عباس أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٤٤/١٠). وفي إسناده رجل لم يسم. وللحديث شاهد من حديث ابن عمر. أخرجه الدارقطني في «غرائب مالك» كما عند الزيلعي في «تخريج الكشاف» (٤٤/٣) من طريق محمد بن الحسن الأزدي المصري ثنا مالك عن نافع عن ابن عمر مرفوعاً. وقال الدارقطني: هذا باطل لا أصل له ومحمد بن الحسن مجهول. وله شاهد موقوف عن ابن مسعود.

أخرجه أحمد في «الزهد» (ص ١٥٩). وله شاهد أيضاً من مراسيل الحسن. أخرجه الطبري في «تفسيره» (٩٢/٢٠) والبيهقي في «شعب الإيمان» كما في «تخريج الزيلعي» (٣/ =

(١) قال محمود: «أي بالفرض الصحيح» قال أحمد: لفظة قدرية ومعتقد رديء قد تقدم إنكاره على القدرية، ولو كان ما قاله حقاً من حيث المعنى، لوجب اجتناب هذه العبارة التي لا تليق بالأدب. والله سبحانه وتعالى أعلم.

والمنكر، فليست صلاته بصلاة، وهي وبال عليه. وقيل: من كان مراعيًا للصلاة جرّه ذلك إلى أن ينتهي عن السيئات يوماً ما، فقد روي أنه قيل لرسول الله - ﷺ - إن فلاناً يصلي بالنهار ويسرق بالليل، فقال: «إنّ صلاته لتردعه» (١١٢٣). وروي أنّ فتى من الأنصار كان يصلي معه الصلوات، ولا يدع شيئاً من الفواحش إلا ركبها، فوصف له فقال: «إنّ صلاته ستنهاه» فلم يلبث أن تاب (١١٢٤). وعلى كل حال إنّ المراعي للصلاة لا بدّ أن يكون أبعد من الفحشاء والمنكر ممن لا يراعيها. وأيضاً فكم من مصليين تنهاهم الصلاة عن

= (٤٥) وقد ورد عن الحسن أيضاً من قوله.

أخرجه أحمد في «الزهد» (ص ٢٦٤) والطبري (٩٢/٢٠).

قال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه الطبراني من رواية العلاء بن المسيب عن ذكره عن ابن عباس بهذا موقوفاً. ورواه الطبراني وابن أبي حاتم، وابن مردويه من طريق ليث عن عطاء عن ابن عباس مرفوعاً، وفي الباب عن ابن عمر. أخرجه الدارقطني في غرائب مالك. وفي إسناده محمد بن الحسن. قال ابن حبان: لا يجوز الاحتجاج به. يروي عن مالك ما لا أصل له. وأخرجه أحمد في الزهد من قول ابن مسعود. وأخرجه عبد الرزاق والطبري والبيهقي في الشعب من مرسل الحسن. انتهى.

١١٢٣ - أخرجه أحمد (٤٧/٢) وابن حبان (٦٣٩ - موارد) والبخاري (٧٢٠ - كشف) والطحاوي في «مشكل الآثار» (٤٣٠/٢) كلهم من طريق الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة مرفوعاً. وصححه ابن حبان.

وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢٦١/٢) وقال: رواه أحمد والبخاري ورجالهم رجال الصحيح. اهـ.

وأخرجه أيضاً إسحاق بن راهويه وأبو يعلى والبيهقي في «شعب الإيمان» كما في «تخريج الزيلعي» (٤٥/٣ - ٤٦). وللحديث شاهد من حديث جابر.

أخرجه البخاري (٧٢١ - كشف) ثنا محمد بن موسى الحرشي ثنا زيد بن عبد الله عن الأعمش عن أبي صالح عن جابر به.

وقال البخاري: وقد اختلفوا في إسناده فرواه غير واحد عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة ورواه بعضهم عن الأعمش عن أبي صالح عن جابر وبعضهم يرويه عن الأعمش عن أبي سفيان عن جابر. اهـ.

وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢٦١/٢) وقال رواه البخاري ورجالهم ثقات.

قال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه أحمد وإسحاق وابن حبان والبخاري وأبو يعلى من طريق عيسى بن يونس ووكيع ومجاهد عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة. قال: جاء رجل إلى النبي - ﷺ - فقال: إن فلاناً يصلي بالليل فإذا أصبح سرق. فقال: إن صلاته ستنهاه، ورواه البخاري من طريق زياد البكائي، وأبو يعلى من طريق أبي إسحاق الفزاري كلاهما عن الأعمش عن أبي صالح عن جابر. قال البخاري: اختلف فيه عن الأعمش فقليل عنه أيضاً عن أبي سفيان عن جابر. انتهى.

١١٢٤ - ذكره الزيلعي في «تخريج الكشاف» (٤٦/٣) وقال غريب.

وقال الحافظ ابن حجر: لم أجده.

الفحشاء والمنكر واللفظ لا يقتضي أن لا يخرج واحد من المصلين عن قضيتها، كما تقول: إن زيداً ينهى عن المنكر فليس غرضك أنه ينهى عن جميع المناكير، وإنما تريد أن هذه الخصلة موجودة فيه وحاصلة منه من غير اقتضاء للعموم ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ يريد: وللصلاة أكبر من غيرها من الطاعات، وسماها بذكر الله كما قال: ﴿فَاتَّقُوا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ٩] وإنما قال: ولذكر الله: ليستقل بالتعليل، كأنه قال: وللصلاة أكبر، لأنها ذكر الله، أو ولذكر الله عند الفحشاء والمنكر وذكر نهيه عنهما ووعيده عليهما أكبر، فكان أولى بأن ينهى من اللطف الذي في الصلاة. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - ولذكر الله إياكم برحمته أكبر من ذكركم إياه بطاعته. ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ من الخير والطاعة، فيبيكم أحسن الثواب.

﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمُ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لِمُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٤١﴾

﴿بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ بالخصلة التي هي أحسن: وهي مقابلة الخشونة باللين، والغضب بالكظم. والسورة بالأناة، كما قال: ﴿أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [فصلت: ٣٤]، ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ فأفرطوا في الاعتداء والعناد ولم يقبلوا النصح ولم ينفع فيهم الرفق، فاستعملوا معهم الغلظة، وقيل: إلا الذين آذوا رسول الله - ﷺ -. وقيل: إلا الذين أثبتوا الولد والشريك وقالوا يد الله مغلولة. وقيل: معناه ولا تجادلوا الداخلين في الذمة المؤذنين للجزية إلا بالتي هي أحسن، إلا الذين ظلموا فنبذوا الذمة ومنعوا الجزية، فإن أولئك مجادلتهم بالسيف. وعن قتادة: الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَقَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [التوبة: ١٩] ولا مجادلة أشد من السيف: وقوله: ﴿وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ من جنس المجادلة بالتي هي أحسن. وعن النبي ﷺ: ما حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم، وقولوا آمنا بالله وكتبه ورسله، فإن كان باطلاً لم تصدقوهم، وإن كان حقاً لم تكذبوهم (١١٢٥).

١١٢٥ - أخرجه أبو داود (٣١٨/٣) كتاب العلم: باب رواية حديث أهل الكتاب حديث (٣٦٤٤) وأحمد (١٣٦/٤) وابن حبان (١١٠ - موارد) وإسحاق بن راهويه وأبو يعلى والطبراني كما في «تخريج الزيلعي» (٤٧/٣) والبيهقي في «شعب الإيمان» (٥٢٠٦) كلهم من طريق نملة بن أبي نملة الأنصاري عن أبي نملة الأنصاري به وقال ابن القطان في «الوهم والإيهام» كما في «تخريج الكشاف» (٤٧/٣): ومثل هذا الحديث ليس بصحيح فإن نملة بن أبي نملة مجهول الحال ولا يعرف بغير هذا الحديث ولا روى عنه غير الزهري وأبوه أبو نملة معروف في الصحابة واسمه عماد بن معاذ بن زرارة شهد بدرأ مع أبيه معاذ ثم المشاهد كلها وتوفي في خلافة عبد الملك بن =

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ
وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ ﴿٤٧﴾﴾

ومثل ذلك الإنزال ﴿أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ أي أنزلناه مصدقاً لسائر الكتب السماوية تحقيفاً لقوله ﴿أَمَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِنَّا أَنْزَلْهُ إِلَيْكُمْ﴾ وقيل: كما أنزلنا الكتاب إلى من كان قبلك أنزلنا إليك الكتاب ﴿فَالَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ﴾ هم عبد الله بن سلام ومن آمن معه ﴿وَمِنْ هَؤُلَاءِ﴾ من أهل مكة. وقيل: أراد بالذين أوتوا الكتاب الذين تقدموا عهد رسول الله - ﷺ - من أهل الكتاب. ومن هؤلاء ممن في عهده منهم ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا﴾ مع ظهورها وزوال الشبهة عنها، إلا المتوغلون في الكفر المصممون عليه. وقيل: هم كعب بن الأشرف وأصحابه.

﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْأَلُونَ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَحْطُوهُ بِمِيزَانٍ إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾

وأنت أمي ما عرفك أحد قط بتلاوة كتاب ولا خط ﴿إِذَا﴾ لو كان شيء من ذلك، أي، من التلاوة والخط ﴿لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ من أهل الكتاب وقالوا: الذي نجده في كتبنا أمي لا يكتب ولا يقرأ وليس به، أو لارتاب مشركو مكة وقالوا: لعله تعلمه أو كتبه بيده. فإن قلت ٨٦/٢ ب: لم سماهم مبطلين، ولو لم يكن أمياً وقالوا: ليس بالذي نجده في كتبنا لكانوا صادقين محقين؟ ولكان أهل مكة أيضاً على حق في قولهم لعله تعلمه أو كتبه فإنه رجل قارىء كاتب؟ قلت: سماهم مبطلين لأنهم كفروا به وهو أمي بعيد من الريب، فكأنه قال: هؤلاء المبطلون في كفرهم به لو لم يكن أمياً لارتابوا أشد الريب، فحين ليس^(١)

= مروان رحمهما الله . اهـ.

وللحديث شاهد من حديث عامر بن ربيعة. أخرجه الطبراني في «مسند الشاميين» كما في «تخريج الكشاف» للزيلعي (٤٧/٣) من طريق بقية بن الوليد عن محمد بن الوليد عن الزبير عن الزهري عن سالم عن ابن عمر عن عامر بن ربيعة به. قال المحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه أبو داود، وابن حبان وأحمد وإسحاق وابن أبي شيبة وأبو يعلى والطبراني، من طرق الزهري أخبرني ابن أبي نملة الأنصاري أن أباه أبا نملة الأنصاري أخبره. قال: «بينما هو عند رسول الله - ﷺ - جالس فذكر قصة هذا فيها»، هذا هو المعروف في إسناد هذا الحديث، وأخرجه الطبراني في مسند الشاميين من رواية بقية عن الزبير عن الزهري عن سالم عن أبيه عن عامر بن ربيعة به. وأصل الحديث في البخاري من حديث أبي هريرة باختصار. انتهى.

(١) قوله «فحين ليس» لعله فحين كان ليس. (ع)

بقارىء كاتب فلا وجه لارتياهم . وشيء آخر : وهو أن سائر الأنبياء عليهم السلام لم يكونوا أميين ، ووجب الإيمان بهم وبما جاءوا به ، لكونهم مصدقين من جهة الحكيم بالمعجزات ، فهب أنه قارىء كاتب فما لهم لم يؤمنوا به من الوجه الذي آمنوا منه بموسى وعيسى عليهما السلام؟ على أن المنزلين^(١) ليسا بمعجزين ، وهذا المنزل معجز ، فإذا هم مبطلون حيث لم يؤمنوا به وهو أمي ، ومبطلون لو لم يؤمنوا به وهو غير أمي . فإن قلت : ما فائدة قوله بيمينك؟ قلت : ذكر اليمين وهي الجارحة التي يزاول بها الخط : زيادة تصوير لما نفي عنه من كونه كاتباً . ألا ترى أنك إذا قلت في الإثبات ؛ رأيت الأمير يخط هذا الكتاب بيمينه ، كان أشد لإثباتك أنه تولى كتيبه ، فكذلك للنفي ﴿بَلِ الْقُرْآنِ﴾ ﴿ءَايَاتُ يَنْتَضِعُ فِي صُدُورِ الْعُلَمَاءِ بِهِ وَحِفَاظِهِ ، وهما من خصائص القرآن : كون آياته بينات الإعجاز ، وكونه محفوظاً في الصدور يتلوه أكثر الأمة ظاهراً ؛ بخلاف سائر الكتب ، فإنها لم تكن معجزات ، وما كانت تقرأ إلا من المصاحف . ومنه ما جاء في صفة هذه الأمة «صدورهم أناجيلهم» (١١٢٦) ، ﴿وَمَا يَجْحَدُ﴾ بآيات الله الواضحة ، إلا المتوغلون في الظلم المكابرون .

﴿وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا آيَاتٌ مِنْ رَبِّنَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٥٦﴾ أَوْلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرًا لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٧﴾ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْبَطْلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٥٨﴾﴾

قري : آية ، وآيات . أرادوا : هلا أنزل عليه آية مثل ناقه صالح ومائدة عيسى عليهما السلام ونحو ذلك ﴿إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ ينزل أيتها شاء ، ولو شاء أن ينزل ما تقترحونه

١١٢٦ - أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٠٩/١٠ - ١١٠) رقم (١٠٠٤٦) من طريق إبراهيم عن علقمة عن ابن مسعود قال : قال رسول الله - ﷺ - : «صفتي أحمد المتوكل ليس بفظ ولا غليظ يجزي بالحسنة الحسنة ولا يكافي السيئة مولده بمكة ومهاجره طيبة وأمه الحمادون يأتزون على أنصافهم ويوصون أطرافهم أناجيلهم في صدورهم . . .» . وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢٧٤/٨) وقال : رواه الطبراني في «الكبير» وفيه من لم أعرفهم .

قال الحافظ في تخريج الكشاف : أخرجه الطبراني من رواية سنان بن الحارث عن إبراهيم عن علقمة عن ابن مسعود مرفوعاً في أثناء حديث ، وروى الواقدي في الردة عن إسماعيل بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن أبي ربيعة عن أبيه ، أن يهودياً من أهل سبأ يقال له نعمان ، وكان أعلم أخبار يهود فذكر قصة فيها صفة النبي - ﷺ - في سفر عندهم مختم وفيه هذا .

(١) قوله «على أن المنزلين ليسا بمعجزين» لعله : المنزلين عليهما . (ع)

لفعل ﴿وَأَيُّهَا أَنَا نَذِيرٌ﴾ كلفت الإنذار وإبانه بما أعطيت من الآيات، وليس لي أن أتخير على الله آياته فأقول: أنزل علي آية كذا دون آية كذا، مع علمي أن الغرض من الآية ثبوت الدلالة، والآيات كلها في حكم آية واحدة في ذلك، ثم قال: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ آية مغنية عن سائر الآيات - إن كانوا طالبين للحق غير متعنتين - هذا القرآن الذي تدوم تلاوته عليهم في كل مكان وزمان فلا يزال معهم آية ثابتة لا تزول ولا تضمحل، كما تزول كل آية بعد كونها، وتكون في مكان دون مكان. إن في مثل هذه الآية الموجودة في كل مكان وزمان إلى آخر الدهر ﴿رَحْمَةً﴾ لنعمة عظيمة لا تشكر. وتذكرة ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ وقيل: أولم يكفهم، يعني اليهود: أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم بتحقيق ما في أيديهم من نعتك ونعت دينك. وقيل: إن ناساً من المسلمين أتوا رسول الله - ﷺ - بكتف قد كتبوا فيها بعض ما يقول اليهود، فلما أن نظر إليها ألقاها وقال: كفى بها حماقة قوم أو ضلالة قوم أن يرغبوا عما جاءهم به نبيهم إلى ما جاءهم به غير نبيهم، فنزلت (١١٢٧). والوجه ما ذكرناه ﴿كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيِّنًا وَبَيِّنَاتٍ شَهَادًا﴾ أني قد بلغتكم ما أرسلت به إليكم وأنذرتكم، وأنكم قابلتموني بالجحد والتكذيب ﴿يَدْعُوا مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ﴾ فهو مطلع على أمري وأمركم، وعالم بحقي وباطلكم ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا يَبْتَغُونَ﴾ منكم وهو ما تعبدون من دون الله ﴿وَكَفَرُوا بِاللَّهِ﴾ وآياته ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْخٰسِرُونَ﴾ المغبونون في صفقتهم حيث اشتروا الكفر بالإيمان، إلا أن الكلام ورد مورد الإنصاف؛ كقوله: ﴿وَأَنَا أَوْ يَتَاكُم لَعَلَّ هٰذِي أَوْ فِي صَلٰتِ مُبِيْبٍ﴾ [سبا: ٢٤]، وكقول حسان [من الوافر]:

فَسَرُّكُمْ مَا لِحَيْرِكُمْ مَا الْفِدَاءُ^(١)

وروي أن كعب بن الأشرف وأصحابه قالوا: يا محمد، من يشهد لك بأنك رسول الله، فنزلت.

١١٢٧ - أخرجه ابن جرير الطبري (١٥٤/١٠) حديث (٢٧٨٣٨) وأبو داود في المراسيل (ص ٣٢٠) باب ما جاء في العلم، حديث برقم (٤٥٤)، والدارمي في سننه (١/١٢٤): باب من لم ير كتابة الحديث. وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (٢/٨٠٠) باب في مطالعة كتب أهل الكتاب والرواية عنهم حديث (١٤٨٥).

وذكره السيوطي في الدر المنثور (٥/٢٨٣) وزاد نسبه إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم والإسماعيلي وابن مردويه.

قال الحافظ في تخريج أحاديث الكشاف: أخرجه الطبري وأبو داود في المراسيل من طريق يحيى بن جعد، أن النبي - ﷺ - أتاه قوم من المسلمين بكتاب في كتف، فذكر نحوه ولفظ الطبري كالأصل. انتهى.

(١) تقدم.

﴿وَسْتَعِجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٧﴾
 يَسْتَعِجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٨﴾ يَوْمَ يَفْسَنُهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ
 تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُووَأُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٩﴾﴾

كان استعجال العذاب استهزاء منهم وتكديباً، والنضر بن الحارث هو الذي قال: اللهم
 امطر علينا حجارة من السماء، كما قال أصحاب الأيكة: فأسقط علينا كسفاً من السماء
 ﴿وَلَوْلَا أَجَلٌ﴾ قد سماه الله وبينه في اللوح لعذابهم، وأوجبت الحكمة تأخيرها إلى ذلك
 الأجل المسمى ﴿لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ﴾ عاجلاً، والمراد بالأجل: الآخرة، لما روي أن الله تعالى
 وعد رسول الله - ﷺ - أن لا يعذب قومه ولا يستأصلهم، وأن يؤخر عذابهم إلى يوم
 القيامة (١١٢٨). وقيل: يوم بدر. وقيل: وقت فنائهم بأجالهم ﴿لَمُحِيطَةٌ﴾ أي سحيط بهم.
 ﴿يَوْمَ يَفْسَنُهُمُ الْعَذَابُ﴾ أو هي محيطة بهم في الدنيا؛ لأن المعاصي التي توجبها محيطة بهم.
 أو لأنها مألهم ومرجعهم لا محالة فكانها الساعة محيطة بهم. (يوم يغشاهم) على هذا
 منصوب بمضمر، أي: يوم يغشاهم العذاب كان كيت وكيت. ﴿مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ
 أَرْجُلِهِمْ﴾ كقوله تعالى: ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦]، ﴿وَنَقُولُ﴾
 وقرئ بالنون والياء ﴿مَا كُنْتُمْ﴾ / ٢ / ١٨٧ ﴿تَعْمَلُونَ﴾ أي جزاءه.

﴿بِعِبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَرِيعَةً فَإِنِّي فَأَعْبُدُونَ ﴿٥١﴾﴾

معنى الآية: أن المؤمن إذا لم يتسهل له العبادة في بلد هو فيه ولم يتمش له أمر دينه
 كما يحب فليهاجر عنه إلى بلد يقدر أنه فيه أسلم قلباً وأصح ديناً وأكثر عبادة وأحسن
 خشوعاً. ولعمري إن البقاع تتفاوت في ذلك التفاوت الكثير، ولقد جربنا وجزب أولونا،
 فلم نجد فيما درنا وداروا: أعون على قهر النفس وعصيان الشهوة وأجمع للقلب المتلفت
 وأضمر للهم المنتشر وأحث على القناعة وأطرد للشيطان وأبعد من كثير من الفتن وأضبط
 للأمر الديني في الجملة - من سكنى حرم الله وجوار بيت الله، فله الحمد على ما سهل
 من ذلك وقرب، ورزق من الصبر وأوزع من الشكر. وعن النبي ﷺ «من فرّ بدينه من
 أرض إلى أرض وإن كان شبراً من الأرض؛ استوجب الجنة وكان رفيق إبراهيم ومحمد»

١١٢٨ - قال الزيلعي في تخريج الكشاف (٤٩/٣): غريب قال الحافظ ابن حجر: لم أجده.

ويخالفه ما رواه الحاكم في المستدرک (٢٥٤/٤): كتاب الفتن، من حديث أبي بردة عن أبيه عن
 أبي موسى. قال: قال رسول الله - ﷺ -: «إن أمتي أمة مرحومة ليس عليها في الآخرة عذاب، إنما
 عذابها في الدنيا الزلازل والقتل، والبلاء» وأحمد في المسند (٤١٠/٤)، والبخاري في تاريخه
 الكبير (٣٨/١).

(١١٢٩)، وقيل: هي في المستضعفين بمكة الذين نزل فيهم: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجَرُوا فِيهَا﴾ [النساء: ٩٧] وإنما كان ذلك لأن أمر دينهم ما كان يستتب لهم بين ظهرائي الكفرة ﴿فَأَنبَى فَاعْبُدُون﴾ في المتكلم، نحو: إياه ضربته، في الغائب وإياك عضتكَ، في المخاطب. والتقدير: فإياي فاعبدوا: فاعبدون، فإن قلت: ما معنى الفاء في (فاعبدون) وتقديم المفعول؟ قلت: الفاء جواب شرط محذوف؛ لأن المعنى: إن أرضي واسعة فإن لم تخلصوا العبادة لي في أرض فأخلصوها لي في غيرها، ثم حذف الشرط وعوض من حذفه تقديم المفعول، مع إفادة تقديمه معنى الاختصاص والإخلاص.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ (٥٧)

لما أمر عباده بالحرص على العبادة وصدق الاهتمام بها حتى يتطلبوا لها أوفق البلاد وإن شسعت^(١)، أتبعه قوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ أي واجدة مرارته وكرهه كما يجد الذائق طعم المذوق. ومعناه: إنكم ميتون فواصلون إلى الجزاء، ومن كانت هذه عاقبته لم يكن له من التزود لها والاستعداد بجهد.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعَمَ أَجْرٍ الْعَمَلِينَ﴾ (٥٨) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾

﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ﴾ لننزلنهم ﴿مِّنَ الْجَنَّةِ﴾ علالي. وقرئ: لنثوينهم، من الشواء وهو النزول للإقامة. يقال: ثوى في المنزل، وأثوى هو، وأثوى غيره وثوى: غير متعد، فإذا تعدى بزيادة همزة النقل لم يتجاوز مفعولاً واحداً، نحو: ذهب، وأذهبته. والوجه في تعديته إلى ضمير المؤمنين وإلى الغرف: إما إجراؤه مجرى لنزلنهم ونبوتنهم. أو حذف الجار وإيصال الفعل: أو تشبيه الظرف المؤقت^(٢) بالمبهم. وقرأ يحيى بن وثاب: فنعم، بزيادة الفاء ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على مفارقة الأوطان والهجرة لأجل الدين. وعلى أذى المشركين، وعلى المحن والمصائب، وعلى الطاعات، وعن المعاصي، ولم يتوكلوا في جميع ذلك إلا على الله.

١١٢٩ - تقدم في سورة النساء.

قال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه الثعلبي من مرسل الحسن وقد تقدم في النساء. انتهى.

- (١) قوله «أوفق البلاد وإن شسعت» أي بعدت. (ع)
 (٢) قوله «الظرف المؤقت» أي المحدد، وهو الغرف. (ع)

﴿وَكَايْنٍ مِّن دَايِبَةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٦٥)

لما أمر رسول الله - ﷺ - من أسلم بمكة بالهجرة، خافوا الفقر والضيعة، فكان يقول الرجل منهم: كيف أقدم بلدة ليست لي فيها معيشة، فنزلت. والدابة: كل نفس دبت على وجه الأرض، عقلت أو لم تعقل. ﴿تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ لا تطيق أن تحمله لضعفها عن حمله ﴿اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ أي لا يرزق تلك الدواب الضعاف إلا الله، ولا يرزقكم أيضاً أبها الأقوياء إلا هو وإن كنتم مطيقين لحمل أرزاقكم وكسبها، لأنه لو لم يقدركم ولم يقدر لكم أسباب الكسب، لكنتم أعجز من الدواب التي لا تحمل، وعن الحسن ﴿لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ لا تدخره، إنما تصبح فيرزقها الله. وعن ابن عيينة: ليس شيء يخبأ إلا الإنسان والنملة والفأرة. وعن بعضهم: رأيت البلبل يحتكر في حضييه. ويقال: للتعقق مخابىء إلا أنه ينساها ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لقولكم: نخشى الفقر والضيعة ﴿الْعَلِيمُ﴾ بما في ضمائركم.

﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُم مَّن خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لِيَقُولَنَّ اللَّهُ فَايْنَ

يُوقُونَ﴾ (٦٦)

الضمير في ﴿سَأَلْتَهُم﴾ لأهل مكة ﴿فَايْنَ يُوقُونَ﴾ فكيف يصرفون عن توحيد الله وأن لا يشركوا به، مع إقرارهم بأنه خالق السموات والأرض.

﴿اللَّهُ يَسِطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنْ أَرَادَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلَيْهِ﴾ (٦٧)

قدر الرزق وقتره بمعنى إذا ضيقه. فإن قلت: الذي رجع إليه الضمير في قوله: ﴿وَيَقْدِرُ لَهُ﴾ هو من يشاء، فكأن بسط الرزق وقدره جعلاً لواحد. قلت: يحتمل الوجيهين جميعاً: أن يريد ويقدر لمن يشاء، فوضع الضمير موضع من يشاء، لأن (من يشاء) مبهم غير معين، فكان الضمير مبهماً مثله، وأن يريد تعاقب الأمرين على واحد على حسب المصلحة ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ يعلم ما يصلح العباد وما يفسدهم.

﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُم مَّن نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لِيَقُولَنَّ اللَّهُ قُلْ

الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (٦٨)

استحمد رسول الله - ﷺ - على أنه ممن أقر بنحو ما أقروا به؛ ثم نفعه ذلك في توحيد الله ونفي الأنداد والشركاء عنه، ولم يكن إقراراً عاطلاً كإقرار المشركين؛ وعلى أنهم أقروا بما هو حجة عليهم حيث نسبوا النعمة إلى الله وقد جعلوا العبادة للصنم، ثم قال: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ما يقولون وما فيه من الدلالة على بطلان الشرك وصحة التوحيد. أو لا يعقلون ما تريد/ ٨٧/ ٢ ب بقولك الحمد لله، ولا يفطنون لم حمدت الله عند مقاتلتهم؟

﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِىَ الْحَيَوانُ لَوْ كَانُوا

يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾

﴿هَذِهِ﴾ فيها ازدرءا للدنيا وتصغير لأمرها، وكيف لا يصغرها وهي لا تزن عنده جناح بعوضه. يريد: ما هي - لسرعة زوالها عن أهلها وموتهم عنها - إلا كما يلعب الصبيان ساعة ثم يتفرقون ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِىَ الْحَيَوانُ﴾ أي ليس فيها إلا حياة مستمرة دائمة خالدة لا موت^(١) فيها، فكأنها في ذاتها حياة. والحيوان: مصدر حي، وقياسه حيوان، فقلبت الياء الثانية واوًا، كما قالوا: حيوة، في اسم رجل، وبه سمي ما فيه حياة: حيوانًا. قالوا: اشتر من الموتان، ولا تشت من الحيوان^(٢). وفي بناء الحيوان زيادة معنى ليس في بناء الحياة، وهي ما في بناء فعلان من معنى الحركة والاضطراب، كالنزوان والنغصان واللهبان^(٣)، وما أشبه ذلك. والحياة: حركة، كما أن الموت سكون، فمجيبه على بناء دال على معنى الحركة، مبالغة في معنى الحياة، ولذلك اختيرت على الحياة في هذا الموضوع المقتضى للمبالغة ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ فلم يؤثروا الحياة الدنيا عليها.

﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الْاِيمَنَ فَلَمَّا بَجَحْتُهُمْ إِلَى الْاِبرِ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾

﴿يَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَهُمْ وَلِيَسْتَمْتَعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾

فإن قلت: بم اتصل قوله: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا﴾؟ قلت: بمحذوف دل عليه ما وصفهم به وشرح من أمرهم، معناه: هم على ما وصفوا به من الشرك والعناد ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الْاِيمَنَ﴾ كائنين في صورة من يخلص الدين لله من المؤمنين، حيث لا يذكرون إلا الله ولا يدعون معه إلها آخر. وفي تسميتهم مخلصين: ضرب من التهكم ﴿فَلَمَّا بَجَحْتُهُمْ إِلَى الْاِبرِ﴾ وآمنوا عادوا إلى حال الشرك: واللام في ﴿يَكْفُرُوا﴾ محتملة أن تكون لام كي، وكذلك في ﴿وَلِيَسْتَمْتَعُوا﴾ فيمن قرأها بالكسر. والمعنى: أنهم يعودون إلى شركهم ليكونوا - بالعود إلى شركهم - كافرين بنعمة النجاة، قاصدين التمتع بها والتلذذ لا غير، على خلاف ما هو عادة المؤمنين المخلصين على الحقيقة: إذا أنجاهم الله أن يشكروا

(١) قال محمود: «إنما عدل عن الحياة إلى هذا البناء تنبيهاً على تعظيم حياة الآخرة ودوامها» قال أحمد: والذي يخص هذا البناء به إفادة ما لا يخلو من الحركة، كالنزوان والجولان. والحيوان من ذلك، والله أعلم.

(٢) قوله «اشتر من الموتان... الخ» الذي في الصحاح: اشتر الموتان، ولا تشت من الحيوان. أي: اشتر الأرض والدور، ولا تشت الرقيق والدواب اهـ. (ع)

(٣) قوله «كالنزوان والنغصان واللهبان» في الصحاح «اللهبان» بالتحريك: اتقاد النار. (ع)

نعمة الله في إنجائهم، ويجعلوا نعمة النجاة ذريعة إلى ازدياد الطاعة، لا إلى التمتع والتلذذ، وأن تكون لام الأمر وقراءة من قرأ وليتمتعوا بالسكون تشهد له. ونحوه قوله تعالى: ﴿أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [فصلت: ٤٠]. فإن قلت: كيف جاز أن يأمر الله تعالى بالكفر وبأن يعمل العصاة ما شاءوا، وهو ناه عن ذلك ومتوعد عليه؟ قلت: هو مجاز عن الخذلان والتخليّة، وأن ذلك الأمر متسخط إلى غاية. ومثاله أن ترى الرجل قد عزم على أمر، وعندك أنّ ذلك الأمر خطأ، وأنه يؤدي إلى ضرر عظيم، فتبالغ في نصحه واستنزاله عن رأيه، فإذا لم تر منه إلا الإباء والتصميم، حردت^(١) عليه وقلت: أنت وشأنك وافعل ما شئت، فلا تريد بهذا حقيقة الأمر. وكيف والأمر بالشيء مرید له، وأنت شديد الكراهة متحسر، ولكنك كأنك تقول له: فإذا قد أبيت قبول النصيحة، فأنت أهل ليقال لك: افعل ما شئت وتبعث عليه، ليتبين لك - إذا فعلت - صحة رأي الناصح وفساد رأيك.

﴿أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَكَمًا أَمِنًا وَيُنْخَظَفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفِيَاً لِبَطْلِ يُؤْمِنُونَ وَنِعْمَةَ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ (١٧)

كانت العرب حول مكة يغزو بعضهم بعضاً، ويتناهبون، وأهل مكة قازون آمنون فيها، لا يغزون ولا يغار عليهم مع قلتهم وكثرة العرب، فذكرهم الله هذه النعمة الخاصة عليهم، ووبخهم بأنهم يؤمنون بالباطل الذي هم عليه، ومثل هذه النعمة المكشوفة الظاهرة وغيرها من النعم التي لا يقدر عليها إلا الله وحده مكفورة عندهم.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ (١٨)

افتراؤهم على الله كذباً: زعمهم أن الله شريكاً. وتكذيبهم بما جاءهم من الحق: كفرهم بالرسول والكتاب. وفي قوله: ﴿لَمَّا جَاءَهُ﴾ تسفيه لهم، يعني: لم يتلعثموا في تكذيبه وقت سماعه، ولم يفعلوا كما يفعل المراجيح العقول المثبتون في الأمور: يسمعون الخبر فيستعملون فيه الروية والفكر، ويستأنون إلى أن يصح لهم صدقه أو كذبه ﴿أَلَيْسَ﴾ تقرير لثوابهم في جهنم؛ كقوله [من الوافر]:

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكَبَ الْمَطَايَا (٢)

(١) قوله «حردت عليه» أي غضبت. أفاده الصحاح. (ع)

(٢) أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكَبَ الْمَطَايَا وأندى العالمين بطون راح؟ =

قال بعضهم: ولو كان استفهاماً ما أعطاه الخليفة مائة من الإبل. وحقيقته: أن الهمزة همزة الإنكار دخلت على النفي، فرجع إلى معنى التقرير. فهما وجهان، أحدهما: ألا يثرون في جهنم، وألا يستوجبون الثواء فيها، وقد افتروا مثل هذا الكذب على الله، وكذبوا بالحق هذا التكذيب والثاني: ألم يصح عندهم أن في جهنم مثوى للكافرين، حتى اجترأوا مثل هذه الجرأة؟

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٩)

أطلق المجاهدة ولم يقيدها بمفعول، ليتناول كل ما يجب مجاهدته من النفس الأمارة بالسوء والشيطان وأعداء الدين ﴿فِينَا﴾ في حقنا ومن أجلنا ولوجهنا خالصاً ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ لنزيدهم هداية إلى سبل الخير وتوفيقاً، كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ أَهْتَدُوا زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: ١٧] وعن أبي سليمان الداراني: والذين جاهدوا فيما علموا لنهدينهم إلى ما لم يعلموا. وعن بعضهم: من عمل بما يعلم وفق لما لا يعلم، وقيل/٢/٨٨: إن الذي نرى من جهلنا بما لا نعلم، إنما هو من تقصيرنا فيما نعلم ﴿لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ لناصرهم ومعينهم.

وعن رسول الله - ﷺ -: «من قرأ سورة العنكبوت كان له من الأجر عشر حسنات بعدد كل المؤمنين والمنافقين» (١١٣٠).

١١٣٠ - هو حديث فضائل القرآن سورة الموضع والذي قد نص على وضعه جماعة من الأئمة والحفاظ. وينظر حديث (٣٤٦).
قال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي من حديث أبي بن كعب. انتهى.

= لجرير: في عبد الملك بن مروان. والاستفهام للإنكار، يعني: لا تنتفي زيادتكم في الفضل والكرم على جميع الناس ومن ركب المطايا: كناية عنهم، لأن الركوب من خواصهم. والراح: اسم جمع واحده راحة، وهي ما عدا الأصابع من الكف، وذلك كناية عن الكرم؛ لأن بها بذل المعروف في العادة. قيل: لما بلغ جرير هذا البيت في القصيدة، كان عبد الملك متكئاً فاستوى جالساً فرحاً وقال: هكذا مدحنا. وأعطاه مائة من الإبل.

سورة الروم

مكية، إلا آية ١٧ فمدنية

وآياتها ٦٠ [نزلت بعد الانشقاق]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الذِّكْرُ﴾ ١ ﴿عَلَيْتِ الرُّومُ﴾ ٢ ﴿فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ ٣ ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ ٤ ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْسَحُ الْمَوْتُونَ﴾ ٥ ﴿يَنْصُرُ اللَّهُ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ ٦

القراءة المشهورة الكثيرة ﴿عَلَيْتِ﴾ بضم الغين. وسيغلبون بفتح الياء. والأرض: أرض العرب، لأن الأرض المعهودة عند العرب أرضهم. والمعنى: غلبوا في أدنى أرض العرب منهم وهي أطراف الشام. أو أراد أرضهم، على إنباء اللام مناب المضاف إليه، أي: في أدنى أرضهم إلى عدوهم، قال مجاهد: هي أرض الجزيرة، وهي أدنى أرض الروم إلى فارس. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: الأردن وفلسطين. وقرئ: في أدنى الأرض. والبضع ما بين الثلاث إلى العشر عن الأصمعي. وقيل: احتربت الروم وفارس بين أذرعات وبصرى، فغلبت فارس الروم، فبلغ الخبر مكة فشق على النبي ﷺ والمسلمين (١١٣١)؛ لأن فارس مجوس لا كتاب لهم والروم أهل الكتاب، وفرح

١١٣١ - قال الزيلعي في «تخريج الكشاف» (٥٤/٣).

قلت: غريب، وأقرب ما وجدته، وإن طرقة تغيير يسير، ما رواه سنيد بن داود في تفسيره: حدثني حجاج، عن أبي بكر بن عبد الله، عن عكرمة قال: كانت امرأة في فارس لا تلد إلا الأبطال، فدعاها كسرى فقال: إني أريد أن أبعث إلى الروم جيشاً واستعمل عليهم رجلاً من بنيك، فأشير علي أيهم أستعمل؟ فأشارت عليه بولد لها يدعى: شهربراز، فاستعمله، قال أبو بكر بن عبد الله: فحدثت هذا الحديث عطاء الخراساني، فقال عطاء الخراساني: فحدثني يحيى بن يعمر أن قيصر بعث رجلاً يدعى: قطمة بجيش من الروم، وبعث كسرى بشهربراز، فالتقيا بأذرعات وبصرى، فغلبتهم فارس، ففرحت بذلك كفار قريش، وكرهه المسلمون، قال عكرمة: ولقي المشركون أصحاب النبي ﷺ - فقالوا: إنكم أهل كتاب والنصارى أهل كتاب، ونحن أميون، وقد ظهر إخواننا من أهل فارس على إخوانكم من أهل الكتاب، وإنكم إن قاتلتمونا؛ لنظهرن عليكم، فوالله لنظهرن الروم على فارس، أخبرنا بذلك نبينا صلوات الله عليه، فقام أبي بن خلف فقال: كذبت =

المشركون وشمتموا وقالوا: أنتم والنصارى أهل الكتاب، ونحن وفارس أميون، وقد ظهر إخواننا على إخوانكم، ولنظهِرْنا نحن عليكم. فنزلت. فقال لهم أبو بكر - رضي الله عنه -: لا يقَرّر الله أعينكم، فوالله لتظهرن الروم على فارس بعد بضع سنين فقال له أبي بن خلف. كذبت يا أبا فضيل، اجعل بيننا أجلاً أناحبك عليه، والمناحبة: المراهنة فناحبه على عشر قلائص من كل واحد منهما، وجعلنا الأجل ثلاث سنين، فأخبر أبو بكر - رضي الله عنه - رسول الله - ﷺ - فقال: البضع ما بين الثلاث إلى التسع، فزيده في الخطر وماده في الأجل. فجعلها مائة قلووس إلى تسع سنين. ومات أبي من جرح رسول الله، وظهرت الروم على فارس يوم الحديدية، وذلك عند رأس سبع سنين. وقيل: كان النصر يوم بدر للفريقيين، فأخذ أبو بكر الخطر من ذرية أبي، وجاء به إلى رسول الله - ﷺ - فقال: تصدّق به، وهذه الآية من الآيات البينة الشاهدة على صحة النبوة، وأن القرآن من عند الله لأنها إنباء عن علم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله. وقرئ: غلبهم، بسكون اللام. والغلب والغلب. مصدران كالجلب والجلب. والحلب والحلب. وقرئ: غلبت الروم، بالفتح. وسيغلبون، بالضم. ومعناه أن الروم غلبوا على ريف الشام وسيغلبهم المسلمون في بضع سنين. وعند انقضاء هذه المدّة أخذ المسلمون في جهاد الروم، وإضافة غلبهم تختلف باختلاف القراءتين، فهي في إحداها إضافة المصدر إلى المفعول. وفي الثانية إضافته إلى الفاعل. ومثالهما ﴿مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِمْرَأَتُهُمْ﴾، ﴿فَلَنْ يُخْلَفَ

= با أبا فضيل، فقال له أبو بكر: أنت أكذب يا عدو الله، فقال: أناحبك عشر قلائص مني وعشر قلائص منك، فإن ظهرت الروم على فارس؛ غرمت إلى ثلاث سنين، ثم جاء أبو بكر إلى النبي - ﷺ - فأخبره، فقال: «ما هكذا ذكرت، إنما البضع ما بين الثلاث إلى التسع، فزيده في الخطر، وماده في الأجل» فخرج أبو بكر فلقى أبا؛ فقال: لعلك ندمت، قال: لا، تعال أزيديك في الخطر، وأمادك في الأجل فاجعلها مائة قلووس لمائة قلووس إلى تسع سنين، قال: قد فعلت، وظهرت الروم على فارس قبل ذلك، فغلبهم المسلمون. وهذا مرسل.

وذكر الترمذي منه قطعة، وقال فيه: وكان ذلك قبل تحريم الزهانة.

وروى الحاكم في مستدركه أيضاً منه قطعة سيرة.

وكذلك الطبري وابن مردويه وابن أبي حاتم وهذا أقرب ما وجدناه.

قال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه سنيد بن أبي داود في تفسيره: حدثني حجاج هو ابن محمد الأعمور عن أبي بكر بن عبد الله عن عكرمة قال: «كانت في فارس امرأة لا تلد إلا الأبطال فدعاها كسرى فقال: إني أريد أن أبعث إلى الروم جيشاً وأستعمل عليهم رجلاً من بنيك فأشير عليّ؛ أيهم استعمل؟ فأشارت عليه بولد لها يدعى شهربراز. فاستعمله. قال أبو بكر بن عبد الله: فحدثت هذا الحديث عطاء الخراساني، فقال: حدثني يحيى بن يعمر أن قيصراً بعث رجلاً يدعى قطعة بجيش من الروم، فالتقى بأذرعاء وبصرى فغلبتهم فارس، فذكر القصة قلت: ولها طرق جمعتها في أول شرحي الكبير على البخاري. وقصة أبي بكر في المراهنة رواها الترمذي وغيره من حديث نيار بن مكرم الأسلمي، وسياقها مخالف لسياق هذه القصة. انتهى.

اللَّهُ عَهْدَهُ ﴿٦﴾ . فإن قلت: كيف صحت المناجحة وإنما هي قمار؟ قلت: عن قتادة رحمه الله أنه كان ذلك قبل تحريم القمار. ومن مذهب أبي حنيفة ومحمد: أن العقود الفاسدة من عقود الربا وغيرها جائزة في دار الحرب بين المسلمين والكفار. وقد احتجنا على صحة ذلك بما عقده أبو بكر بينه وبين أبي بن خلف ﴿مِنْ قَتْلٍ وَإِنْ بَعْدُ﴾ أي في أول الوقتين وفي آخرهما حين غلبوا وحين يغلبون، كأنه قيل: من قبل كونهم غالبين، وهو وقت كونهم مغلوبين. ومن بعد كونهم مغلوبين، وهو وقت كونهم غالبين، يعني أن كونهم مغلوبين أولاً وغالبين آخراً ليس إلا بأمر الله وقضائه ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاوَلُهُمَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠] وقرئ: من قبل ومن بعد، على الجز من غير تقدير مضاف إليه واقتطاعه، كأنه قيل: قبلاً وبعداً، بمعنى أولاً وآخرأ ﴿وَيَوْمَئِذٍ﴾ ويوم تغلب الروم على فارس ويحل ما وعده الله عز وجل من غلبتهم ﴿يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ﴾ وتغلبه من له كتاب على من لا كتاب له. وغيظ من شمت بهم من كفار مكة. وقيل: نصر الله: هو إظهار صدق المؤمنين فيما أخبروا به المشركين من غلبة الروم وقيل نصر الله. أنه ولي بعض الظالمين بعضاً وفرق بين كلمهم، حتى تفانوا وتناقصوا، وقل^(١) هؤلاء شوكة هؤلاء وفي ذلك قوة للإسلام. وعن أبي سعيد الخدري: وافق ذلك يوم بدر، وفي هذا اليوم نصر المؤمنين ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ ينصر عليكم تارة وينصركم أخرى.

﴿وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ وَعَدَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَهْرًا مِّنَ الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴿٧﴾ ﴿٧﴾

﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾ مصدر مؤكد، كقولك: لك علي ألف درهم عرفاً؛ لأنَّ معناه: أترف لك بها اعترافاً، ووعد الله ذلك وعداً؛ لأن ما سبقه في معنى وعد. ذمهم الله عز وجل بأنهم عقلاء في أمور الدنيا، بله في أمر الدين، وذلك أنهم كانوا أصحاب تجارات ومكاسب/ ٢/ ٨٨ ب. وعن الحسن: بلغ من حدق أحدهم أنه يأخذ الدرهم فينقره بأصبعه، فيعلم أرديء هو أم جيد. وقوله: ﴿يَعْلَمُونَ﴾ بذكر من قوله: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ وفي هذا الإبدال من النكتة أنه أبدله منه، وجعله بحيث يقوم مقامه ويسد مسده، ليعلمك أنه لا فرق بين عدم العلم الذي هو الجهل، وبين وجود العلم الذي لا يتجاوز الدنيا. وقوله: ﴿ظَهْرًا مِّنَ الْحَيَاةِ

(١) قوله «وفل هؤلاء شوكة هؤلاء» أي كسرهما. أفاده الصحاح. (ع)

ينظر: ديوانه ص ٨٥، ٨٩، والجنى الداني ص ٣٢، وشرح شواهد المغني ١/ ٤٢، ولسان العرب، ومغني اللبيب ١/ ١٧، وبلا نسبة في الخصائص ٢/ ٤٦٣، ٣/ ٢٦٩، ورفص المباني ص ٤٦، وشرح المفصل ٨/ ١٢٣ والمقتضب ٣/ ٢٩٢.

الدُّنْيَا ﴿ فَيُفِيدُ أَنْ لِلدُّنْيَا ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، فَظَاهِرُهَا مَا يَعْرِفُهُ الْجَهَالُ مِنَ التَّمَتُّعِ بِزَخَارِفِهَا وَالتَّنَعُّمِ ^(١) بِمَلَاذِهَا. وَبَاطِنُهَا وَحَقِيقَتُهَا أَنَّهَا مَجَازٌ إِلَى الْآخِرَةِ: يَتَزَوَّدُ مِنْهَا إِلَيْهَا بِالطَّاعَةِ وَالأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ. وَفِي تَنْكِيرِ الظَّاهِرِ: أَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ إِلَّا ظَاهِرًا وَاحِدًا مِنْ جُمْلَةِ الظَّوَاهِرِ. وَ«هُمْ» الثَّانِيَةُ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَبْتَدَأً. وَ﴿عَفَلُونَ﴾ خَبْرُهُ، وَالجُمْلَةُ خَبْرُ «هُمْ» الأُولَى، وَأَنْ يَكُونَ تَكْرِيرًا لِلأُولَى، وَغَافِلُونَ خَبْرُ الأُولَى. وَأَيُّهُ كَانَتْ فَذَكَرَهَا مُنَادٍ عَلَى أَنَّهُمْ مَعْدِنُ الغَفْلَةِ عَنِ الْآخِرَةِ وَمَقَرَّهَا وَمَعْلَمُهَا، وَأَنَّهَا مِنْهُمْ تَنْبَعُ وَإِلَيْهِمْ تَرْجِعُ.

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَائِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴿٨﴾﴾

﴿فِي أَنفُسِهِمْ﴾ يَحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ ظَرْفًا، كَأَنَّهُ قِيلَ: أَوَلَمْ يَحْدِثُوا التَّفَكُّرَ فِي أَنفُسِهِمْ، أَيْ: فِي قُلُوبِهِمُ الْفَارِغَةَ مِنَ الْفِكْرِ، وَالتَّفَكُّرُ لَا يَكُونُ إِلَّا فِي الْقُلُوبِ، وَلَكِنَّهُ زِيَادَةٌ تَصْوِيرٌ لِحَالِ الْمُتَفَكِّرِينَ، كَقَوْلِكَ: اعْتَقَدَهُ فِي قَلْبِكَ وَأَضْمَرَهُ فِي نَفْسِكَ، وَأَنْ يَكُونَ صِلَةً لِّلتَّفَكُّرِ، كَقَوْلِكَ: تَفَكَّرَ فِي الأَمْرِ وَأَجَالَ فِيهِ فِكْرَهُ. وَ﴿مَا خَلَقَ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِالقَوْلِ المَحذُوفِ، مَعْنَاهُ: أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فَيَقُولُوا هَذَا القَوْلَ. وَقِيلَ: مَعْنَاهُ: فَيَعْلَمُوا، لِأَنَّ فِي الكَلَامِ دَلِيلًا عَلَيْهِ ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أَيُّ مَا خَلَقَهَا بَاطِلًا وَعَبَثًا بِغَيْرِ غَرَضٍ صَحِيحٍ وَحِكْمَةٍ بِالغَةِ، وَلَا لَتَبْقَى خَالِدَةً: وَإِنَّمَا خَلَقَهَا مَقْرُونَةٌ بِالحَقِّ مَصْحُوبَةٌ بِالحِكْمَةِ، وَبِتَقْدِيرِ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَا يَبْدُلُهَا مِنْ أَنْ تَنْتَهِيَ إِلَيْهِ، وَهُوَ قِيَامُ السَّاعَةِ وَوَقْتُ الحِسَابِ وَالثَّوَابِ وَالعِقَابِ. أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون: ١١٥] كَيْفَ سَمَى تَرْكَهُمْ غَيْرَ رَاجِعِينَ إِلَيْهِ عَبَثًا. وَالبَاءُ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ مِثْلُهَا فِي قَوْلِكَ: دَخَلْتُ عَلَيْهِ بِشِيَابِ السَّفَرِ، وَاشْتَرَى الفَرَسَ بِسِرْجِهِ وَلِجَامِهِ، تَرِيدُ: اشْتَرَاهُ وَهُوَ مُلْتَبَسٌ بِالسَّرْجِ وَاللِّجَامِ، غَيْرُ مُنْفَكٍّ عَنْهُمَا. وَكَذَلِكَ المَعْنَى مَا خَلَقَهَا إِلَّا وَهِيَ مُلْتَبَسَةٌ بِالحَقِّ مُقْتَرَنَةٌ بِهِ، فَإِنْ قُلْتَ: إِذَا جَعَلْتَ (فِي أَنفُسِهِمْ) صِلَةً لِّلتَّفَكُّرِ، فَمَا مَعْنَاهُ؟ قُلْتَ: مَعْنَاهُ: أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمُ الَّتِي هِيَ أَقْرَبُ إِلَيْهِمْ مِنْ غَيْرِهَا مِنَ المَخْلُوقَاتِ، وَهُمْ أَعْلَمُ وَأَخْبِرُ بِأَحْوَالِهَا مِنْهُمْ بِأَحْوَالِ مَا عَدَاهَا، فَتَدَبَّرُوا مَا أَوْدَعَهَا اللَّهُ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا مِنْ غَرَائِبِ الحِكْمِ الدَّالَّةِ عَلَى التَّدْبِيرِ دُونَ

(١) قال محمود: «يعلمون بدل من الأول، وفي البديل نكتة وهي الإشعار بأنه لا فرق بين عدم العلم لذي هو الجهل وبين العلم بظاهر الدنيا، حتى كأنهما شيء واحد، فأبدل أحدهما من الآخر. وفائدة تنكير الظاهر أنهم لا يعلمون إلا ظاهراً واحداً من جملة ظواهرها» قال أحمد: وفي التنكير تقليل لمعلومهم وتقليله يقربه من النفي حتى يطابق المبدل منه. وروي عن الحسن أنه قال في تلاوته هذه الآية: بلغ من صدق أحدهم في ظاهر الحياة الدنيا أنه يقر الدينار بأصبعه فيعلم أجيد هو أم رديء.

الإهمال وأنه لا بد لها من انتهاء إلى وقت يجازيها فيه الحكم الذي دبر أمرها على الإحسان إحساناً وعلى الإساءة مثلها، حتى يعلموا عند ذلك أن سائر الخلائق كذلك أمرها جار على الحكمة والتدبير وأنه لا بد لها من الانتهاء إلى ذلك الوقت، والمراد بقاء ربهم: الأجل المسمى.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَنَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُظْلَمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦﴾﴾

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا﴾ تقرير لسيرهم في البلاد ونظرهم إلى آثار المدمرين من عاد وثمود وغيرهم من الأمم العاتية، ثم أخذ يصف لهم أحوالهم وأنهم ﴿كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَنَارُوا الْأَرْضَ﴾ وحرثوها قال الله تعالى: ﴿لَا ذَلُولَ تُبِيرُ الْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٧١] وقيل لبقر الحرث: المثيرة. وقالوا: سمي ثوراً لإثارته الأرض وبقرة؛ لأنها تبقرها أي تشقها ﴿وَعَمَرُوهَا﴾ يعني أولئك المدمرون ﴿أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ من عمارة أهل مكة. وأهل مكة: أهل واد غير ذي زرع، ما لهم إثارة الأرض أصلاً، ولا عمارة لها رأساً فما هو إلا تهكم بهم، وبضعف حالهم في دنياهم؛ لأن معظم ما يستظهر به أهل الدنيا ويتباهون به أمر الدهقنة^(١)، وهم أيضاً ضعاف القوى، فقلوه: ﴿كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ أي عاد وثمود وأضرابهم من هذا القبيل. كقلوه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥] وإن كان هذا أبلغ، لأنه خالق القوى والقدر. فما كان تدميره إياهم ظلماً لهم؛ لأن حاله منافية للظلم، ولكنهم ظلموا أنفسهم حيث عملوا ما أوجب تدميرهم.

﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ اسْتَوْتُوا السُّوَائِيَ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٧﴾﴾

قريء عاقبة بالنصب والرفع. و﴿السُّوَائِيَ﴾ تأنيت الأسوأ وهو الأقيح، كما أن الحسنى تأنيت الأحسن. والمعنى: أنهم عوقبوا في الدنيا بالدمار، ثم كانت عاقبتهم سوأى؛ إلا أنه وضع المظهر موضع المضممر، أي: العقوبة التي هي أسوأ العقوبات في الآخرة، وهي جهنم التي أعدت للكافرين. و﴿أَن كَذَّبُوا﴾ بمعنى لأن كذبوا. ويجوز أن يكون أن بمعنى: أي؛ لأنه إذا كان تفسير الإساءة التكذيب والاستهزاء كانت في معنى القول، نحو: نادى. وكتب، وما أشبه ذلك. ووجه آخر: وهو أن يكون ﴿اسْتَوْتُوا السُّوَائِيَ﴾ بمعنى اقترفوا الخطيئة التي هي أسوأ الخطايا، و﴿أَن كَذَّبُوا﴾ عطف بيان لها، وخبر كان محذوف كما

(١) قوله «أمر الدهقنة» أي الزراعة. (ع)

يحذف جواب لما ولو، إرادة الإبهام.

﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾

﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي إلى / ٢ / ٨٩ ثوابه وعقابه . وقرئ بالتاء والياء .

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْسُ الْمَجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا

بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ ﴿١٣﴾﴾

الإبلاس: أي يبقى بائساً ساكناً متحيراً. يقال: ناظرته فأبلس. إذا لم ينبس^(١) وبس من أن يحتج. ومنه الناقاة المبلاس: التي لا ترغو. وقرئ: يبلس، بفتح اللام، من أبلسه إذا أسكته ﴿مِنْ شُرَكَائِهِمْ﴾ من الذين عبدوهم من دون الله ﴿وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ﴾ أي يكفرون بالهيتهم ويجحدونها. أو وكانوا في الدنيا كافرين بسببهم. وكتب ﴿شُفَعَاءُ﴾ في المصحف بواو قبل الألف، كما كتب ﴿علموا بني إسرائيل﴾ وكذلك كتبت (السواى) بألف قبل الياء إثباتاً للهمزة على صورة الحرف الذي منه حركتها.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُؤْمَذُ لِمَنْ يُفْرِقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي

رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ

مُخْضَرُونَ ﴿١٦﴾﴾

الضمير في ﴿يُفْرِقُونَ﴾ للمسلمين والكافرين، لدلالة ما بعده عليه. وعن الحسن - رضي الله عنه -: هو تفرق المسلمين والكافرين: هؤلاء في عليين، وهؤلاء في أسفل السافلين - وعن قتادة - رضي الله عنه -: فرقة لا اجتماع بعدها ﴿فِي رَوْضَةٍ﴾ في بستان، وهي الجنة. والتكثير لإبهام أمرها وتفخيمه. والروضة عند العرب: كل أرض ذات نبات وماء. وفي أمثالهم: أحسن من بيضة في روضة، يريدون: بيضة النعامة ﴿يُحْبَرُونَ﴾ يسرون. يقال: حبره إذا سره سرورا تهلل له وجهه وظهر فيه أثره. ثم اختلفت فيه الأقاويل لاحتماله وجوه جميع المساز؛ فعن مجاهد - رضي الله عنه -: يكرمون. وعن قتادة: ينعمون. وعن ابن كيسان: يحلون. وعن أبي بكر بن عياش: التيجان على رءوسهم. وعن وكيع: السماع في الجنة. وعن النبي ﷺ: أنه ذكر الجنة وما فيها من النعيم^(٢)، وفي آخر القوم أعرابي فقال: يا رسول الله، هل في الجنة من سماع؟ قال: «نعم يا أعرابي، إن في الجنة نهراً حافتاه الأبقار من كل بيضاء خوصانية، يتغنين بأصوات

(١) قوله «إذا لم ينبس» أي لم يتكلم. أفاده الصحاح. (ع)

لم تسمع الخلائق بمثلها قط، فذلك أفضل نعيم الجنة» قال الراوي: فسألت أبا الدرداء، بم يتغنين؟ قال: بالتسبيح (١١٣٢). وروي: «إن في الجنة لأشجاراً عليها أجراس من فضة، فإذا أراد أهل الجنة السماع بعث الله ريحاً من تحت العرش فتقع في تلك الأشجار، فتحرك تلك الأجراس بأصوات لو سمعها أهل الدنيا لماتوا طرباً» (١١٣٣). ﴿مُحَضَّرُونَ﴾ لا يغيبون عنه ولا يخفف عنهم، كقوله: ﴿وَمَا هُمْ بِمُخْرِجِيكِ وَنَهَاءِ﴾ [المائدة: ٣٧]، ﴿لَا يَمُرُّ عَنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٧٥].

﴿فَسُبِّحَنَّ اللَّهُ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ (٧) ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ (٨) ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾
 وَكَذَلِكَ نُخْرِجُكَ ﴿٩﴾

لما ذكر الوعد والوعيد، أتبعه ذكر ما يوصل إلى الوعد وينجي من الوعيد. والمراد

١١٣٢ - أخرجه ابن عدي في «الكامل» (٧٨/٤) من طريق سليمان بن عطاء عن مسلمة بن عبد الله الجهني عن عمه أبي مشجعة بن ربعي عن أبي الدرداء به مرفوعاً.
 ولين ابن عدي سليمان بن عطاء ونقل عن البخاري قوله: في حديثه بعض المناكير. وقال ابن عدي: وهو كما قال.

وقال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف»: وسليمان منكر الحديث.
 والحديث أيضاً أخرجه الثعلبي كما في «تخريج الكشاف» للزيلعي (٥٥/٣).
 قال الحافظ في تخريج الكشاف: في طريق سليمان بن عطاء عن مسلمة بن عبد الله الجهني عن عمه أبي مشجعة عن أبي الدرداء قال: «كان رسول الله - ﷺ - يذكر الناس، فذكر الجنة وما فيها... الحديث»، وسليمان منكر الحديث. انتهى.

١١٣٣ - قال الزيلعي في «تخريج الكشاف» (٥٦/٢): غريب ورواه الثعلبي من حديث عبد الله بن عرادة الشيباني عن القاسم بن مطيب عن مغيرة عن إبراهيم قال: إن في الجنة لأشجاراً... إلى آخره.
 قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف»: عبد الله بن عرادة الشيباني أحد الضعفاء.
 وأخرجه إسحاق بن راهويه في مسنده كما في «تخريج الكشاف» (٥٦/٢) أخبرنا عتاب بن بشير عن عبد الله بن مسلم بن هرمز الهرمزي عن مجاهد قال: قيل لأبي هريرة: هل في الجنة من سماع؟ قال: نعم شجرة أصلها من ذهب وأغصانها الفضة وثمرها الباقوت والزبرجد يبعث لها ريح فيحك بعضها بعضاً فما سمع شيء قط أحسن منه.

وللحديث طريق آخر عن أبي هريرة بنحو الأول أخرجه أبو نعيم في صفة الجنة (٤٣٣).
 قال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه الثعلبي من رواية عبد الله بن عرادة الشيباني أحد الضعفاء عن القاسم بن مطيب عن مغيرة عن إبراهيم بهذا. وروى إسحاق في مسنده من رواية مجاهد قيل لأبي هريرة: «هل في الجنة من سماع؟ قال: نعم شجرة أصلها من ذهب وأغصانها من الفضة وثمرها الباقوت والزبرجد، يبعث لها ريح فيحرك بعضها بعضاً. فما سمع شيء قط أحسن منه». انتهى.

بالتسيح ظاهره الذي هو تنزيه الله من السوء والثناء عليه بالخير في هذه الأوقات لما يتجدد فيها من نعمة الله الظاهرة. وقيل: الصلاة. وقيل لابن عباس - رضي الله عنهما -: هل تجد الصلوات الخمس في القرآن؟ قال: نعم، وتلا هذه الآية ﴿تُسَبِّحُونَ﴾ صلوات المغرب والعشاء ﴿تُصَبِّحُونَ﴾ صلاة الفجر ﴿وَعَشِيًّا﴾ صلاة العصر. ﴿وَتُظْهِرُونَ﴾ صلاة الظهر. وقوله ﴿وَعَشِيًّا﴾: متصل بقوله: ﴿حِينَ تُسَبِّحُونَ﴾ وقوله: ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ اعتراض بينهما. ومعناه: إنَّ على المميزين كلهم من أهل السموات والأرض أن يحمده. فإن قلت: لم ذهب الحسن رحمه الله إلى أن هذه الآية مدنية؟ قلت: لأنه كان يقول: فرضت الصلوات الخمس بالمدينة وكان الواجب بمكة ركعتين في غير وقت معلوم. والقول الأكثر أن الخمس فرضت بمكة. وعن عائشة رضي الله عنها: فرضت الصلاة ركعتين فلما قدم رسول الله - ﷺ - المدينة أقرت صلاة السفر، وزيد في صلاة الحضر (١١٣٤). وعن رسول الله - ﷺ -: «من سره أن يكال له بالقفيز الأوفى فليقل: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصَبِّحُونَ﴾... الآية» (١١٣٥). وعنه عليه السلام: «من قال حين يصبح ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصَبِّحُونَ﴾ - إلى قوله - ﴿وَكَذَلِكَ نُخْرِجُكُمْ﴾ أدرك ما فاته في يومه. ومن قالها حين يمسي أدرك ما فاته في ليلته» (١١٣٦). وفي قراءة عكرمة: حينما تمسون وحينما تصبحون. والمعنى: تمسون فيه وتصبحون فيه. كقوله: ﴿يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ [البقرة: ٤٨] بمعنى فيه ﴿الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ الطائر من البيضة، و﴿الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾

١١٣٤ - تقدم تخريجه، قال الحافظ في تخريج الكشاف: متفق عليه من حديث عائشة واللفظ لأحمد وسياقه أتم. انتهى.

١١٣٥ - قال الزيلعي في «تخريج الكشاف» (٥٧/٢): رواه الثعلبي في «تفسيره» من حديث الحجاج بن يوسف بن قتيبة بن مسلم ثنا بشر بن الحسين ثنا الزبيري عن عدي عن أنس بن مالك به. وقال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف» وفي إسناده بشر بن الحسين وهو ساقط. قال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه الثعلبي من حديث أنس وفي إسناده بشر بن الحسين وهو ساقط.

١١٣٦ - أخرجه أبو داود (٣١٩/٤) كتاب الأدب باب ما يقول إذا أصبح حديث (٥٠٧٦) وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٥٤) والطبراني في «الكبير» (٢٣٩/١٢) رقم (١٢٩٩١) من طريق سعيد بن بشير عن محمد بن عبد الرحمن البيهقي عن أبيه عن ابن عباس مرفوعاً. قال الزيلعي في «تخريج الكشاف» (٥٧/٢): ورواه العقيلي وابن عدي في كتابيهما وأعله سعيد بن بشير ونقلوا عن البخاري أنه قال: لا يصح حديثه وقال العقيلي: وهو مجهول. وقال ابن عدي: ولا أعلم لسعيد بن بشير النجراتي غير هذا الحديث وإليه أشار البخاري بقوله لا يصح حديثه.

والحديث ذكره الحافظ ابن كثير في «تفسيره» (٤٢٨/٣) وقال: إسناده ضعيف. قال الحافظ في «تخريج الكشاف»: أخرجه أبو داود والعقيلي وابن عدي من حديث ابن عباس وإسناده ضعيف وقال البخاري لا يصح.

البيضة من الطائر. وإحياء الأرض: إخراج النبات منها ﴿وَكَذَلِكَ نَخْرِجُونَ﴾ ومثل ذلك الإخراج تخرجون من القبور وتبعثون. والمعنى: أن الإبداء والإعادة متساويان في قدرة من هو قادر على الطرد والعكس من إخراج الميت من الحي وإخراج الحي من الميت وإحياء الميت وإماتة الحي. وقرئ: الميت، بالتشديد^(١). وتخرجون، بفتح التاء.

﴿وَمِنَ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنَ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾

﴿خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ لأنه خلق أصلهم منه. و﴿إِذَا﴾ للمفاجأة. وتقديره: ثم فاجأتم وقت كونكم بشراً منتشرين في الأرض، كقوله: ﴿وَبَيْنَ مِنْهَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء: ١] ﴿مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ لأن حواء خلقت من ضلع آدم عليه السلام. والنساء بعدها خلقن من أصلاب الرجال. أو من شكل أنفسكم وجنسها، لا من جنس آخر، وذلك لما بين الاثنين من جنس/٢/٨٩ ب واحد من الألف والسكون، وما بين الجنسين المختلفين من التنافر ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ﴾ التواؤم والتراحم بعصمة الزواج، بعد أن لم تكن بينكم سابقة معرفة، ولالقاء، ولا سبب يوجب التعاطف من قرابة أو رحم. وعن الحسن - رضي الله عنه -: المودة كناية عن الجماع، والرحمة عن الولد، كما قال: ﴿وَرَحْمَةٌ مِثْلُهَا﴾ [ص: ٤٣] وقال: ﴿ذَكَرَ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدُكَ﴾ [مریم: ٢]. ويقال: سكن إليه إذا مال إليه، كقولهم: انقطع إليه، واطمأن إليه - ومنه السكن. وهو الإلف المسكون إليه. فعل بمعنى مفعول. وقيل: إن المودة والرحمة من قبل الله وإن الفرق من قبل الشيطان^(٢).

﴿وَمِنَ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْلَفَ الْمَسْبُورَاتِ وَالْوَنُكُورَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ ﴿٢٢﴾﴾

الأسنة: اللغات. أو أجناس النطق وأشكاله. خالف عزّ وعلا بين هذه الأشياء حتى لا تكاد تسمع منطقتين متفقيين في همس واحد، ولا جهازة، ولا حدة، ولا رخاوة، ولا فصاحة، ولا لكنة، ولا نظم، ولا أسلوب، ولا غير ذلك من صفات النطق وأحواله، وكذلك الصور وتخطيطها، والألوان وتنويعها، واختلاف ذلك وقع التعارف، وإلا فلور اتفقت وتساكلت وكانت ضرباً واحداً لوقع التجاهل والالتباس، ولتعطلت مصالح كثيرة، وربما رأيت توأمين يشتبهان في الحلية، فيعروك الخطأ في التمييز بينهما، وتعرف

(١) قوله «وقرئ» الميت بالتشديد» يفيد أن القراءة المشهورة بالتخفيف. (ع)

(٢) قوله «وإن الفرق من قبل الشيطان» في الصحاح «الفرق» بالكسر: البغض. (ع)

حكمة الله في المخالفة بين الحلّي وفي ذلك آية بينة حيث ولدوا من أب واحد، وفرّعوا من أصل فذ، وهم على الكثرة التي لا يعلمها إلا الله مختلفون متفاوتون. وقرئ: للعالمين بفتح اللام وكسرهما، ويشهد للكسر قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [المنكبوت: ٤٣].

﴿وَمِنَ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ
يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾﴾

هذا من باب اللف وترتيبه: ومن آياته منامكم وابتغائكم من فضله بالليل والنهار، إلا أنه فصل بين القرنيين الأولين بالقرنيين الآخرين؛ لأنهما زمانان. والزمان والواقع فيه كشيء واحد، مع إعانة اللف على الاتحاد. ويجوز أن يراد: منامكم في الزمانين، وابتغاءكم فيهما، والظاهر هو الأول لتكرره في القرآن، وأسد المعاني ما دل عليه القرآن يسمعون بالآذان الواعية.

﴿وَمِنَ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾﴾

في ﴿يُرِيكُمُ﴾ وجهان: إضماران، وإنزال الفعل منزلة المصدر، وبهما فسر المثل: تسمع بالمعيدي خير من أن تراه، وقول القائل [من الوافر]:
وَقَالُوا: مَا تَشَاءُ؟ فَقُلْتُ: أَلْهُوْ إِلَى الْإِضْبَاحِ آثَرِ ذِي أُثِيرِ^(١)

(١)	أرقت وصحبتني بمضيق عمق	لبرق من تهامة مستطير
	سقوني الخمر ثم تكنفوني	عداء الله من كذب وزور
	وقالوا: ما تشاء؟ فقلت: ألهو	إلى الإصباح آثر ذي أثير

لعروة بن الورد العبسي، وأرقت: سهرت. والواو للمعية. والمضيق المكان الضيق. وعمق - بكسر فسكون - شجر ببلاد الحجاز، وبضم ففتح: موضع منخفض عند مكة، ولعله سكن هنا للوزن، ولبرق: متعلق بأرقت، أي سهرت في هذا الموضوع لأجل برق من تهامة جهة محبوبتي، ويحتمل أن الواو الحالية، وصحبتني مبتدأ خبره بمضيق عمق، وإذا كان أصحابه فيه فهو فيه، فرجع إلى الأول - ومستطير: منتشر. وروي: سقوني النسيء. ونسأت اللبن: خلطته بماء، فالنسيء: هو اللبن المخلوط بماء. وتكنفوني: أحاطوا بي، وعداء: جمع عاد بمعنى عدو. وقيل: جمع عدو، أي: هم أعداء الله من أجل كذبهم وزورهم، وهي جملة اعتراضية، ويحتمل أن «عداء» بدل من ضمير الفاعل. أو فاعل على لغة من قال: أكلوني البراغيث، أي: أحاطوا بي وقالوا: ما الذي تريده، فقلت: ألهو، أي: هو أن ألهو، فأن: مقدرة معنى، وإن لم ينصب الفعل لفظاً. وقال الجوهري: يقال أفعال هذا أثر ذي أثير، أي: أول كل شيء، فأشار إلى أن أثر: نصب على الظرفية المجازية أو الحالية، أي أفعله حال كونه أول كل شيء يؤثر، فهو أفعال تفضيل بمعنى المفعول، ونص ابن =

﴿خَوْفًا﴾ من الصاعقة أو من الإخلاف ﴿وَطَمَعًا﴾ في الغيث. وقيل: خوفاً للمسافر، وطمعاً للحاضر، وهما منصوبان على المفعول له. فإن قلت: من حق المفعول له أن يكون فعلاً لفاعل الفعل المعلن؛ والخوف والطمع ليسا كذلك. قلت: فيه وجهان، أحدهما: أن المفعولين فاعلون في المعنى، لأنهم راءون، فكأنه قيل: يجعلكم رائين البرق خوفاً وطمعاً. والثاني: أن يكون على تقدير حذف المضاف، أي: إرادة خوف وإرادة طمع^(١)، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه. ويجوز أن يكونا حالين؛ أي: خائفين وطماعين. وقرئ: ينزل بالتشديد^(٢).

﴿وَمِنَ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتَرْتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ يَمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَمْ قَسِينُونَ ﴿١٦﴾﴾

﴿وَمِنَ آيَاتِهِ﴾ قيام السموات والأرض واستمساكهما بغير عمد ﴿بِأَمْرِهِ﴾ أي بقوله: كونا قائمتين. والمراد بإقامته لهما إرادته لكونهما على صفة القيام دون الزوال. وقوله: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ﴾ بمنزلة قوله: يريكم، في إيقاع الجملة موقع المفرد على المعنى، كأنه قال: ومن آياته قيام السموات والأرض، ثم خروج الموتى من القبور إذا دعاهم دعوة واحدة: يا أهل القبور اخرجوا. والمراد سرعة وجود ذلك من غير توقف ولا تلبث، كما يجيب الداعي المطاع مدعوه، كما قال القائل [من الطويل]:

= الحاجب على جواز ذلك ووروده قليلاً، وأثره بقصر الهمة ومدها: إذا قدمه على غيره، وأثير: اسم مفعول بمعنى مأثور. أو حقيق بالتقدم، فالمعنى: أول كل شيء صاحب شيء مأثور، فيكون هو الأثير المقدم. أو التقدير: لهوى طول الليل هو المقدم عندي.

ينظر: ديوانه (ص ٥٧)، الدرر (١/٧٥)، لسان العرب (أثر)، بلا نسبة في تذكرة النحاة ص ٥٣٦، الخصائص (٢/٢٣٣)، شرح المفصل ٩٥/٢، المحتسب (٢/٣٢)، وهمع الهوامع (١/٦).

(١) قال محمود: «فإن قلت: أينصب خوفاً وطمعاً مفعولاً لهما وليسا فعلي فاعل الفعل المعلن، فما وجه ذلك؟ قلت: المفعولون هنا فاعلون لأنهم راءون، فتقديره: يجعلكم رائين البرق خوفاً وطمعاً. أو على حذف مضاف، تقديره: إرادة خوفكم وطمعكم» قال أحمد: الخوف والطمع من جملة مخلوقات الله تعالى وأثار قدرته، وحينئذ يلزم اجتماع شرائط النصب فيهما وهي كونهما مصدرين ومقارنين في الوجود، والفاعل الخالق واحد، فلا بد من التنبيه على تخريج النصب على غير هذا الوجه، فنقول: معنى قول النحاة في المفعول له لا بد وأن يكون فعل الفاعل، أي: ولا بد أن يكون الفاعل متصفاً به، مثاله إذا قلت: جنتك إكراماً لك، فقد وصفت نفسك بالإكرام فقلت في المعنى: جنتك مكرماً لك، والله تعالى - وإن خلق الخوف والطمع لعباده - إلا أنه مقدس عن الاتصاف بهما، فمن ثم احتج إلى تأويل النصب على المذهبين جميعاً. والله أعلم.

(٢) قوله «وقرئ: ينزل بالتشديد» يفيد أن المشهور بالتخفيف. (ع)

دَعَوْتُ كَلِيْبًا دَعْوَةً فَكَأَنَّ مَا دَعَوْتُ بِهِ ابْنَ الطُّوْدِ أَوْ هُوَ أَسْرَعُ

يريد بابن الطود: الصدى. أو الحجر إذا تدهدى، وإنما عطف هذا على قيام السموات والأرض بشم، بياناً لعظم ما يكون من ذلك الأمر واقتداره على مثله، وهو أن يقول: يا أهل القبور، قوموا؛ فلا تبقى نسمة من الأولين والآخرين إلا قامت تنظر، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِّخُ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]. قولك: دعوته من مكان كذا، كما يجوز أن يكون مكانك يجوز أن يكون مكان صاحبك، تقول: دعوت زيداً من أعلى الجبل فنزل عليّ؛ ودعوته من أسفل الوادي فطلع إليّ. فإن قلت: بم تعلق ﴿مَنْ الْأَرْضِ﴾ أبالفعل أم بالمصدر؟ قلت: هيهات، إذا جاء نهر الله بطل نهر معقل. فإن قلت: ما الفرق بين إذا وإذا؟ قلت: الأولى للشرط، والثانية للمفاجأة، وهي تنوب مناب الفاء في جواب الشرط. وقرئ: تخرجون، بضم التاء وفتحها ﴿فَلْيُنْزِلُوا﴾ مقادون لوجود أفعاله فيهم لا يمتنعون عليه.

﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٢٧)

﴿وَهُوَ / ٢ / ١٩٠﴾ أهُوْتُ عَلَيْهِ ﴿ فيما يجب عندكم وينقاس على أصولكم ويقتضيه معقولكم؛ لأن من أعاد منكم صنعة شيء كانت أسهل عيه وأهون من إنشائها، وتعتذرون للصانع إذا خطيء في بعض ما ينشئه بقولكم: أول الغزو أخرج، وتسمون الماهر في صناعته معاوداً، تعنون أنه عاودها كرتة بعد أخرى؛ حتى مرن عليها وهانت عليه. فإن قلت: لم ذكر الضمير في قوله: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ والمراد به الإعادة؟ قلت: معناه: وأن يعيده أهون عليه. فإن قلت: لم أخرت الصلة في قوله: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ وقدمت في قوله: ﴿هُوَ عَلَىٰ هَيْئٍ﴾ [مريم: ٩]؟ قلت: هناك قصد الاختصاص وهو محزه، فقبل:

(١) يقول: دعوت كليباً. ويروى: خليداً. دعوة واحدة فأجاني بسرعة كأني دعوت به ابن الطود: وهو الجبل العظيم، وابنه الصدي: الذي يحاكي صوت الصائح عقب صياحه. أو الحجر إذا هوى منه متدهداً متدحرجاً إلى أسفل. وسمى ابنه. على سبيل الاستعارة التصريحية، لأنه ناشئ منه وملازم له. ثم إن فيه تجريداً حيث انتزع من كليب أمراً آخر يشبه ابن الطود في السرعة. والباء للملابسة، أي كأني دعوت ابن الطود ملابسا له. ويحتمل أنها للبدل، أي: دعوت بدله ابن الطود. أو بمعنى من. أي: دعوت منه ابن الطود. وقوله: أو هو، أي: كليب أسرع من ابن الطود في الإجابة. ينظر لسان العرب (طود)، المخصص (٢٠٢/١٣)، أساس البلاغة (بني)، (طود)، تهذيب اللغة (٤/١٤)، تاج العروس (طود).

(٢) قال محمود: إن قلت: لم أخرت الصلة هنا وقد قدمت في قوله تعالى: ﴿هُوَ عَلَىٰ هَيْئٍ﴾؟ قلت: لأن المقصود مما نحن فيه خلاف المقصد هناك، فإنه اختصاص الله تعالى بالقدرة على إيلاد الهم =

هو عليّ هين، وإن كان مستصعباً عندكم أن يولد بين هم^(١) وعاقرة؛ وأما ههنا فلا معنى للاختصاص، كيف والأمر مبني على ما يعقلون من أن الإعادة أسهل من الابتداء؛ فلو قدمت الصلة لتغير المعنى. فإن قلت: ما بال الإعادة استعظمت في قوله: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ﴾ حتى كأنها فضلت على قيام السموات والأرض بأمره^(٢)، ثم هونت بعد ذلك؟ قلت: الإعادة في نفسها عظيمة، ولكنها هونت بالقياس إلى الإنشاء. وقيل الضمير في عليه للخلق. ومعناه: أن البعث أهون على الخلق من الإنشاء، لأن تكوينه في حد الاستحكام، والتمام أهون عليه وأقل تعباً وكبدًا، من أن ينتقل في أحوال ويندرج فيها إلى أن يبلغ ذلك الحد. وقيل: الأهون بمعنى الهين. ووجه آخر: وهو أن الإنشاء من قبيل التفضل الذي يتخير فيه الفاعل بين أن يفعله وأن لا يفعله، والإعادة من قبيل الواجب الذي لا بد له من فعله، لأنها لجزء الأعمال وجزاؤها واجب^(٣)، والأفعال: إما محال والمحال ممتنع أصلاً^(٤) خارج عن

= والعاقرة، وأما المقصد هنا فلا معنى للاختصاص فيه، كيف والأمر مبني على ما يعتقده في الشاهد من أن الإعادة أسهل من الابتداء، فالاختصاص يغير المعنى قال أحمد: كلام نفيس يستحق أن يكتب بذوب التبر لا بالحبر، وإنما يلقي الاختصاص من تقديم ما حقه أن يؤخر، وقد علمت مذهبه في مثل ذلك.

(١) قوله «أن يولد بين هم وعاقرة في الصحاح «الهم» بالكسر. الشيخ الفاني. (ع)

(٢) قال محمود: «إن قلت: ما بال الإعادة استعظمت في قوله: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ﴾ حتى كأنها فضلت على قيام السموات والأرض؟ قلت: الإعادة في نفسها عظيمة، ولكنها هونت بالنسبة إلى الإنشاء» قال أحمد: إنما يلقي في السؤال تعظيم الإعادة من عطفها بـثم، إيذاناً بتغاير مرتبتها وعلو شأنها. وقوله في الجواب: إنها هونت بالنسبة إلى الإنشاء لا يخلص، فإن الإعادة ذكرت ههنا عقيب قيام السموات والأرض بأمره. وقيامها ابتداء وإنشاء أعظم من الإعادة، فيلزم تعظيم الإعادة بالنسبة إلى ما عطف عليه عن الإنشاء ويعود الإشكال، والمخلص - والله أعلم - جعل ثم على بابها لتراخي الزمان لا لتراخي المراتب، فعلى أن تكون مرتبة المعطوف عليه العليا، ومرتبة المعطوف هي الدنيا. وذلك نادر في مجيئها لتراخي المراتب، فإن المعطوف حينئذ في أكثر المواضع أرفع درجة من المعطوف عليه، والله أعلم.

(٣) قوله «وجزاؤها واجب... إلخ» هذا عند المعتزلة، ولا يجب على الله شيء عند أهل السنة كما تقدم في محله. (ع)

(٤) عاد كلامه: قال في تقرير معنى قوله وهو أهون عليه: الأفعال إما ممتنع عقلاً لذاته، وإما ممتنع لصارف يصرف الحكيم عن فعله. وإما تفضل يتخير الحكيم فيه بين أن يفعل وأن لا. وإما واجب على الحكيم أن يفعله فالإنشاء الأول من قبيل التفضل، وأما الإعادة فواجبة على الله تعالى لأجل الجزاء، فلما كانت واجبة كانت أبعد الأفعال عن الممتنع، فلذلك وصفت بالتسهيل وكانت أهون من الإنشاء» قال أحمد: لقد ضلّ وصد عن السبيل، فلا نوافقه ولا نرافقه، والحق: أن لا واجب على الله تعالى؛ وكل ما ذكره في هذا الفصل نزغات قدرية، على أنها أيضاً غير مستقيمة على أصولهم المجتنة، فإن مقتضاها وجوب الإنشاء في الحكمة؛ إذ لولا مصلحة اقتضت الإنشاء لما وقع، وتلك المصلحة توجب متعلقها، فقد وضع أن المصنف لا إلى معالي السنة رقي، ولا في =

المقدور، وأما ما يصرف الحكيم عن فعله صارف وهو القبيح، وهو رديف المحال؛ لأن الصارف يمنع وجود الفعل كما تمنعه الإحالة. وإما تفضل والتفضل حالة بين بين، للفاعل أن يفعل وأن لا يفعل. وإما واجب لا بد من فعله، ولا سبيل إلى الإخلال به، فكان الواجب أبعد الأفعال من الامتناع وأقربها من الحصول. فلما كانت الإعادة من قبيل الواجب، كانت أبعد الأفعال من الامتناع. وإذا كانت أبعدا من الامتناع، كانت أدخلها في التأنى والتسهل، فكانت أهون منها^(١). وإذا كانت أهون منها كانت أهون من الإنشاء ﴿وَلَهُ الَّذِي الْأَعْلَى﴾ أي: الوصف الأعلى الذي ليس لغيره مثله قد عرف به. ووصف في السموات والأرض على السنة الخلائق وألسنة الدلائل، وهو أنه القادر الذي لا يعجز عن شيء من إنشاء وإعادة وغيرهما من المقدورات، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي القاهر لكل مقدور، الحكيم الذي يجري كل فعل على قضايا حكمته وعلمه. وعن مجاهد: المثل الأعلى: قول لا إله إلا الله، ومعناه: وله الوصف الأعلى الذي هو الوصف بالوحدانية. ويعضده قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [الروم: ٢٨] وقال الزجاج: وله المثل الأعلى في السموات والأرض، أي: قوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧] قد ضربه لكم مثلاً فيما يصعب ويسهل. يريد: التفسير الأول.

﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِّنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (٢٨)

فإن قلت: أي فرق بين الأولى والثانية والثالثة في قوله تعالى: ﴿مِنْ أَنفُسِكُمْ﴾، ﴿مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾، ﴿مِنْ شُرَكَاءَ﴾؟ قلت: الأولى للابتداء، كأنه قال: أخذ مثلاً وانتزعه من أقرب شيء منكم وهي أنفسكم ولم يبعد، والثانية للتبويض، والثالثة مزيدة لتأكيد الاستفهام الجاري مجرى النفي. ومعناه: هل ترضون لأنفسكم - وعبيدكم أمثالكم بشر كبشر وعبيد كعبيد - أن يشارككم بعضهم ﴿فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ من الأموال وغيرها تكونون أنتم وهم فيه على السواء، من غير تفصلة بين حرّ وعبد: تهابون أن تستبدوا بتصرف دونهم، وأن تفتاتوا بتدبير عليهم كما يهاب بعضهم بعضاً من الأحرار، فإذا لم ترضوا بذلك لأنفسكم، فكيف ترضون لرب الأرباب ومالك الأحرار والعبيد أن تجعلوا بعض عبيده له شركاء؟ ﴿كَذَلِكَ﴾ أي مثل هذا التفصيل ﴿نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ أي نبينها: لأن التمثيل مما يكشف

= حضيض الاعتزال بقي، فله العصمة.

(١) قوله «فكانت أهون منها» أي من بقية الأفعال. (ع)

المعاني ويوضحها؛ لأنه بمنزلة التصوير والتشكيل لها. ألا ترى كيف صور الشرك بالصورة المشوهة؟

﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾

﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي أشركوا، كقوله تعالى: إن الشرك لظلم عظيم ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي اتبعوا أهواءهم جاهلين، لأن العالم إذا ركب هواه ربما ردعه علمه وكفه. وأما الجاهل فيهيم على وجهه كالبهيمة لا يكفه شيء ﴿مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾ من خذله^(١) ولم يلفظ به، لعلمه أنه ممن لا لطف له، فمن يقدر على هداية مثله. وقوله: ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ دليل على أن المراد بالإضلال الخذلان.

﴿فَأَقْوَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا يَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾

﴿فَأَقْوَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ فقوم وجهك له وعدله، غير ملتفت عنه يمينا ولا شمالا، وهو تمثيل لإقباله على الدين، واستقامته عليه، وثباته، واهتمامه بأسبابه، فإن من اهتم بالشيء عقد عليه طرفه، وسدد إليه نظره، وقوم له وجهه، مقبلاً به عليه. و﴿حَنِيفًا﴾ حال من المأمور. أو من الدين ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ﴾ أي الزموا فطرة الله / ٢ / ٩٠ ب. أو عليكم فطرة الله. وإنما أضمته على خطاب الجماعة لقوله: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ ومنيبين: حال من الضمير في: الزموا. وقوله: ﴿وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا﴾... ﴿وَلَا تَكُونُوا﴾ معطوف على هذا المضمير. والفطرة: الخلقة. ألا ترى إلى قوله: ﴿لَا يَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ والمعنى: أنه خلقهم قابلين للتوحيد ودين الإسلام، غير نائين عنه ولا منكرين له، لكونه مجاوباً للعقل، مساوقاً للنظر الصحيح، حتى لو تركوا لما اختاروا عليه ديناً آخر، ومن غوى منهم فباغوا شياطين الإنس والجن. ومنه قوله ﷺ: «كل عبادي خلقت حنفاء فاجتالتهم الشياطين^(٢) عن دينهم وأمروهم أن

(١) قوله «من أضل الله»: من خذله» تأويل الإضلال بذلك مبني على أنه تعالى لا يخلق الشر، وهو مذهب المعتزلة، وذهب أهل السنة إلى أنه يخلق الشر كالخير، فالآية على ظاهرها. (ع)

(٢) قوله «فاجتالتهم الشياطين» أذرتهم. أفاده الصحاح. (ع)

يشركوا بي غيري» (١١٣٧)، وقوله عليه السلام: كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه هما اللذان يهودانه وينصرانه» (١١٣٨)، ﴿لَا يَدْرِي لِمَ لَخَقَّ اللَّهُ﴾ أي ما ينبغي أن تبدل

١١٣٧ - أخرجه مسلم (٢١٩٧/٤ - ٢١٩٨) كتاب الجنة وصفة نعيمها باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار حديث (٢٨٦٥/٦٣) وابن ماجه (١٣٩٩/٢) كتاب الزهد: باب البراءة من الكبر والتواضع حديث (٤١٧٩) مختصراً، وأحمد (١٦٢/٤ - ١٦٦) والنسائي في «فضائل القرآن» رقم (٩٥ - ٩٦) من حديث عياض بن حمار مرفوعاً.

قال الحافظ في تخريج الكشاف: أخرجه مسلم من حديث عياض بن حمار به وأتم منه. انتهى.
١١٣٨ - أخرجه البخاري (٤٩٣/١١) كتاب القدر: باب الله أعلم بما كانوا عاملين، الحديث (٦٥٩٩)، ومسلم (٢٠٤٨/٤): كتاب القدر: باب معنى كل مولود يولد على الفطرة، الحديث (٢٦٥٨/٢٥)، وأبو داود (٨٦/٥): كتاب السنة: باب في ذراري المشركين، الحديث (٤٧١٤)، والترمذي (٣/٣٠٣): كتاب القدر: باب كل مولود يولد على الفطرة، الحديث (٣٢٢٣)، ومالك (١/٢٤١): كتاب الجنائز: باب جامع الجنائز، الحديث (٥٢)، وأحمد (٢٣٣/٢)، والحميدي (٤٧٣/٢)، رقم (١١١٣)، وعبد الرزاق (٢٠٠٨٧)، وأبو يعلى (١٩٧/١١)، رقم (٦٣٠٦) وابن حبان (١٢٨ - ١٣٠)، وأبو نعيم في الحلية (٣٢٨/٩)، من حديث أبي هريرة، أن رسول الله - ﷺ - قال: كل مولود يولد على الفطرة؛ فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه، كما تنتج الإبل جمعاء، هل تحس فيها من جدعاء، قالوا: يا رسول الله: أ رأيت الذي يموت وهو صغير، قال: الله أعلم بما كانوا عاملين.

ولفظ مسلم مصدراً بلفظ: «كل إنسان تلده أمه على الفطرة، وأبواه بعد يهودانه وينصرانه ويمجسانه، فإن كانا مسلمين فمسلم، كل إنسان تلده أمه، يلكر الشيطان في حضنيه إلا مريم وابنها.

وفي الباب عن جابر والأسود بن سريع وابن عباس وسمرة بن جندب.
- حديث جابر:

أخرجه أحمد (٣٥٣/٣) من طريق أبي جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن الحسن عن جابر قال: قال رسول الله - ﷺ -: «كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عنه لسانه فإذا عبر عنه لسانه، إما شاكراً وإما كفوراً».

وذكره الهيثمي في «المجمع» (٢٢١/٧) وقال: رواه أحمد وفيه أبو جعفر الرازي وهو ثقة وفيه خلاف وبقي رجاله ثقات.

- حديث الأسود بن سريع:

أخرجه أحمد (٤٣٥/٣) وابن حبان (١٦٥٨ - موارد) وأبو يعلى (٢٤٠/٢) رقم (٩٤٢) والطبراني في «الكبير» (٢٨٣/١) رقم (٨٢٨) والطحاوي في «مشكل الآثار» (١٦٣/٢) من حديث الأسود بن سريع بمثل حديث جابر.

وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣١٩/٥) وقال: رواه أحمد بأسانيد والطبراني في الكبير والأوسط... وبعض أسانيد أحمد رجاله رجال الصحيح.

- حديث ابن عباس:

أخرجه البزار في «مسنده» (٢١٦٧ - كشف) وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢٢١/٧) بلفظ: كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه.

تلك الفطرة أو تغيير. فإن قلت: لم وحد الخطاب أولاً، ثم جمع؟ قلت: خوطب رسول الله - ﷺ - أولاً، وخطاب الرسول خطاب لأمته مع ما فيه من التعظيم للإمام، ثم جمع بعد ذلك للبيان والتلخيص ﴿مِنَ الَّذِينَ﴾ بدل من المشركين ﴿فَرَّقُوا دِينَهُمْ﴾ تركوا دين الإسلام. وقرئ: فرَّقوا دينهم بالتشديد، أي: جعلوه أدياناً مختلفة لاختلاف أهوائهم ﴿وَكَانُوا شِيْعًا﴾ فرقاً، كل واحدة تشايح إمامها الذي أضلها ﴿كُلُّ حِزْبٍ﴾ منهم فرح بمذهبه مسرور، يحسب باطله حقاً - ويجوز أن يكون (من الذين) منقطعاً مما قبله، ومعناه: من المفارقين دينهم كل حزب فرحين بما لديهم، ولكنه رفع فرحون على الوصل لكل؛ كقوله [من الطويل]:

وَكُلُّ خَلِيلٍ غَيْرُ هَاضِمٍ نَفْسِهِ (١)

﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا آذَاهُمْ مِنْهُ رَحْمَةٌ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَلَيْنَهُمْ فَتَمْتَعُوا ثُمَّ قَتَلْتُمُومُ ﴿٣٤﴾﴾

الضر: الشدة من هزال أو مرض أو قحط أو غير ذلك. والرحمة: الخلاص من الشدة. واللام في ﴿يَكْفُرُوا﴾ مجاز مثلها في ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا﴾. ﴿فَتَمْتَعُوا﴾ نظير ﴿أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ ﴿فَتَمْتَعُوا﴾ وبال تمتعكم. وقرأ ابن مسعود: وليتمتعوا.

﴿أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾﴾

السلطان: الحجة، وتكلمه. مجاز، كما تقول: كتابه ناطق بكذا، وهذا مما نطق به القرآن. ومعناه: الدلالة والشهادة، كأنه قال: فهو يشهد بشركهم وبصحته. وما في ﴿بِمَا

= وقال الهيثمي: رواه البزار وفيه ممن لم أعرفه غير واحد.

- حديث سمرة بن جندب:

أخرجه البزار (٢١٦٦ - كشف) وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/٢٢١) وقال: رواه البزار وفيه عباد بن منصور وهو ضعيف ونقل عن يحيى القطان أنه وثقه. قال الحافظ في تحريج الكشاف: متفق عليه من حديث أبي هريرة. انتهى.

(١) وكل خليل غير هاضم نفسه فبالصد والإعراض عنه جدير

للشماخ: ويروى: بدل الشطر الثاني: بوصل خليل صارم أو مصادر. وغير هاضم - بالرفع -: صفة كل. أو بالجر: صفة خليل، أي: من لم يخفض نفسه لصاحبه فهو حقيق بالصد والإعراض عنه لا بالمودة. وزادت الفاء، لأن المبتدأ فيه معنى الشرط. والصارم: القاطع. والمصادر: المجانب، أي: من لم يهضم نفسه لوصول خليله، أدى به ذلك إلى القطيعة، فإن لم تكن فإلى المجانية، فكانه مقاطع، أو مجانب بالفعل.

كَتُوبًا ﴿٣٥﴾ مصدرية أي: بكونهم بالله يشركون. ويجوز أن تكون موصولة ويرجع الضمير إليها. ومعناه: فهو يتكلم بالأمر الذي بسببه يشركون. ويحتمل أن يكون المعنى: أم أنزلنا عليهم ذ سلطان، أي: ملكاً معه برهان فذلك الملك يتكلم بالبرهان الذي بسببه يشركون.

﴿وَإِذَا أَدْفَكَ النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يِمَّا قَدَّمَتْ أَيْدِيَهُمْ إِذَا هُمْ

يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾

﴿وَإِذَا أَدْفَكَ النَّاسَ رَحْمَةً﴾ أي نعمة من مطر أو سعة أو صحة ﴿فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ أي بلاء من جذب أو ضيق أو مرض - والسبب فيها شؤم معاصيهم - قنطوا من الرحمة.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾

ثم أنكر عليهم بأنهم قد علموا أنه هو الباسط القابض، فما لهم يقنطون من رحمته، وما لهم لا يرجعون إليه تائبين من المعاصي التي عوقبوا بالشدة من أجلها، حتى يعيد إليهم رحمته.

﴿ثُمَّ نَزَّلْنَا الْقُرْآنَ فَخَقُّهُ وَالْمَسْكِينِ وَأَنَّ السَّبِيلَ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمْ

الْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾

حق ذي القربى: صلة الرحم. وحق المسكين وابن السبيل: نصيبهما من الصدقة المسماة لهما وقد احتج أبو حنيفة رحمه الله بهذه الآية في وجوب النفقة للمحارم إذا كانوا محتاجين عاجزين عن الكسب. وعند الشافعي رحمه الله: لا نفقة بالقرابة إلا على الولد والوالدين: قاس سائر القرابات على ابن العم، لأنه لا ولاد بينهم. إن قلت: كيف تعلق قوله: ﴿فَقَاتِلْ ذَا الْقُرْبَى﴾ بما قبله حتى جيء بالفاء؟ قلت: لما ذكر أن السيئة أصابتهم بما قدّمت أيديهم، أتبعه ذكر ما يجب أن يفعل وما يجب أن يترك ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ﴾ يحتمل أن يراد بوجهه ذاته أو جهته وجانبه، أي: يقصدون بمعرفتهم إياه خالصاً وحقه، كقوله تعالى: ﴿إِلَّا آيَاتَهُ وَجْهَ رَبِّهِ الْأَعْلَى ﴿٢٠﴾﴾ [الليل: ٢٠] أو يقصدون جهة التقرب إلى الله لا جهة أخرى، والمعنيان متقاربان، ولكن الطريقة مختلفة.

﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رَبِّا لِيَرْبُؤُوا فِيْ أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُؤُوا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ

وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾

هذه الآية في معنى قوله تعالى: ﴿يَمْنَعُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرِي الْمَصْدَقَاتِ﴾ [البقرة: ٢٧٦] سواء بسواء، يريد: وما أعطيتهم أكلة الربا ﴿مِنْ رَبِّا لِيَرْبُؤُوا فِيْ﴾ أموالهم: ليزيد ويزكو في أموالهم،

فلا يزكو عند الله ولا يبارك فيه ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن ذَّكَوٰرٍ﴾ أي صدقة تبغون به وجهه خالصا، لا تطلبون به مكافأة ولا رياء وسمعة ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ ذوو الإضعاف من الحسنات. ونظير المضعف: المقوي والموسر، لذي القوة واليسار: وقرئ بفتح العين. وقيل: نزلت في ثقيف، وكانوا يربون. وقيل: المراد أن يهب الرجل للرجل أو يهدي له، ليعوضه أكثر مما وهب أو أهدي، فليست تلك الزيادة بحرام، ولكن المعوض لا يثاب على تلك الزيادة. وقالوا: الربا ربوان؛ فالحرام: كل قرض يؤخذ فيه أكثر منه: أو يجزّ منفعة. والذي ليس بحرام: أن يستدعي بهبته أو بهديته أكثر منها/ ٢/ ٩١أ. وفي الحديث «المستغزر يثاب من هبته» (١١٣٩). وقرئ: وما أتيتم من ربا، بمعنى: وما غشيتموه أو رهقتموه من إعطاء ربا. وقرئ: لتربوا، أي: لتزيدوا في أموالهم كقوله تعالى: ﴿وَيَرْبِي السَّكَنَاتِ﴾ [البقرة: ٢٧٦] أي يزيدها. وقوله تعالى: ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ التفات حسن، كأنه قال لملائكته وخواص خلقه: فأولئك الذين يريدون وجه الله بصدقاتهم: هم المضعفون. فهو أمدح لهم من أن يقول: فأنتم المضعفون. والمعنى: المضعفون به، لأنه لا بد من ضمير يرجع إلى ما، ووجه آخر: وهو أن يكون تقديره: فمؤتوه أولئك هم المضعفون. والحذف لما في الكلام من الدليل عليه، وهذا أسهل مأخذا، والأول أملا بالفائدة.

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُمْ مَن يَفْعَلُ مِثْلَ ذَلِكَ مِّن شَيْءٍ سُبْحٰنَهُ وَتَعٰلٰى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

﴿الله﴾ مبتدأ وخبره ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ أي الله هو فاعل هذه الأفعال الخاصة التي لا يقدر على شيء منها أحد غيره، ثم قال: ﴿هَلْ مِن شُرَكَائِكُمْ﴾ الذين اتخذتموهم أندادا له من الأصنام وغيرها ﴿مَن يَفْعَلُ﴾ شيئا قط من تلك الأفعال؛ حتى يصح ما ذهبتم إليه، ثم استبعد حاله من حال شركائهم. ويجوز أن يكون ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ صفة للمبتدأ، والخبر: هل من شركائكم، وقوله: ﴿مِن ذَلِكَ﴾ هو الذي ربط الجملة بالمبتدأ، لأن معناه: من أفعاله ومن الأولى والثانية والثالثة: كل واحدة منهنّ مستقلة بتأكيد، لتعجيز شركائهم، وتجهيل عبدتهم.

١١٣٩ - قال الزيلعي في «تخريج الكشاف» (٥٨/٢): لم أجده إلا من قول شريح، رواه ابن أبي شيبة في البيوع ثنا ابن أبي زائدة عن هشام عن ابن سيرين عن شريح قال: المستغزر يثاب من هبته أو ترد عليه.

ورواه عبد الرزاق في «مصنفه» في الهبة: أخبرنا معمر عن أيوب عن ابن سيرين به . اهـ . وقال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف»: أخرجه ابن أبي شيبة وعبد الرزاق من وجهين عن ابن سيرين عن شريح بهذا موقوفاً.

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ

يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾

﴿الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ نحو: الجذب، والقحط، وقلة الربيع في الزراعات والرياح في التجارات، ووقوع الموتان في الناس والدواب، وكثرة الحرق والغرق، وإخفاق الصيادين^(١) والغاصة، ومحق البركات من كل شيء، وقلة المنافع في الجملة وكثرة المضار. وعن ابن عباس: أجذبت الأرض وانقطعت مادة البحر. وقالوا: إذا انقطع القطر عميت دواب البحر. وعن الحسن أن المراد بالبحر: مدن البحر وقراه التي على شاطئه. وعن عكرمة: العرب تسمي الأمصار البحار. وقرئ في البر والبحور ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ [الروم: ٤١] بسبب معاصيهم وذنوبهم، كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَصْبَحْتُمْ مِنْ مُّصِيبَةٍ إِلَّا مَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠] وعن ابن عباس ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ﴾ بقتل ابن آدم أخاه. وفي البحر بأن جلندى كان يأخذ كل سفينة غصباً: وعن قتادة: كان ذلك قبل البعث، فلما بعث رسول الله - ﷺ - رجع راجعون عن الضلال والظلم. ويجوز أن يريد ظهور الشر والمعاصي بكسب الناس ذلك. فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾؟ قلت: أما على التفسير الأول فظاهر، وهو أن الله قد أفسد أسباب دنياهم ومحققها، ليذيقهم وبال بعض أعمالهم في الدنيا قبل أن يعاقبهم بجميعها في الآخرة، لعلهم يرجعون عما هم عليه. وأما على الثاني فاللام مجاز، على معنى أن ظهور الشرور بسببهم ما استوجبوا به أن يذيقهم الله وبال أعمالهم إرادة الرجوع، فكانهم إنما أفسدوا وتسببوا لفشو المعاصي في الأرض لأجل ذلك. وقرئ: لنذيقهم، بالنون.

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾

ثم أكد تسبب المعاصي لغضب الله ونكاله: حيث أمرهم بأن يسيروا في الأرض فينظروا كيف أهلك الله الأمم وأذاتهم سوء العاقبة لمعاصيهم، ودل بقوله: ﴿كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّشْرِكِينَ﴾ على أن الشرك وحده لم يكن سبب تدميرهم، وأن ما دونه من المعاصي يكون سبباً لذلك.

﴿فَاقْرَأْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَاسِمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَ لَهُ مِنْ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَعُونَ ﴿٤٣﴾

القيم: البليغ الاستقامة، الذي لا يتأتى فيه عوج ﴿مِنْ اللَّهِ﴾ إما أن يتعلق بياتي، فيكون المعنى: من قبل أن يأتي من الله يوم لا يرده أحد، كقوله تعالى: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾

(١) قوله «إخفاق الصيادين» في الصحاح: أخفق الصائد، إذا رجع ولم يصطد. (ع)

[الأنبياء: ٤٠] أو بمرّد، على معنى: لا يرّده هو بعد أن يجيء به، ولا ردّه من جهته .
 والمردّ: مصدر بمعنى الردّ ﴿بَصَدَعُونَ﴾ يتصدعون: أي: يتفرّقون، كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ
 تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِذُ يَنْفَرُونَ﴾ ﴿١٤﴾ [الروم: ١٤].

﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
 الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٤٥﴾

﴿فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ كلمة جامعة لما لا غاية وراءه من المضارّ، لأنّ من كان ضاره كفره؛
 فقد أحاطت به كلّ مضره ﴿فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ أي يسوّون لأنفسهم ما يسوّيه لنفسه الذي
 يمهّد فراشه ويوطئه، لئلا يصيبه في مضجعه ما ينبيه عليه وينغص عليه مرقده: من نتوء أو
 قفض^(١) أو بعض ما يؤذي الراقد. ويجوز أن يريد: فعلى أنفسهم يشفقون، من قولهم
 في المشفق: أم فرشت فأنامت. وتقديم الظرف في الموضعين للدلالة على أنّ ضرر الكفر
 لا يعود إلا على الكافر لا يتعداه. ومنفعة الإيمان والعمل الصالح: ترجع إلى المؤمن لا
 تتجاوزه ﴿لِيَجْزِيَ﴾ متعلق بيمهدون تعليل له ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾ مما يتفضل عليهم بعد توفية
 الواجب من الثواب؛ وهذا يشبه الكناية، لأن الفضل تبع للثواب، فلا يكون إلا بعد
 حصول ما هو تبع له: أو أراد من عطائه وهو ثوابه؛ لأن الفضول والفواضل هي الأعطية
 عند العرب. وتكرير ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ وترك الضمير إلى الصريح/٢/٩١ ب
 لتقرير أنه لا يفلح عنده إلا المؤمن الصالح. وقوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ تقرير بعده
 تقرير، على الطرد والعكس.

﴿وَمَنْ آتَيْنَاهُ أَنْ بُرْسِلَ الرِّيحُ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِيُنَجِّرِيَ أَفْئُكُ بِأَمْرِهِ وَلِيُنَبِّئُوا مِنْ
 فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ﴿٤٦﴾

﴿الرِّيحُ﴾ هي الجنوب والشمال والصبأ، وهي رياح الرحمة. وأما الدبور. فريح
 العذاب، ومنه قوله ﷺ: «اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً» (١١٤٠). وقد عدد

١١٤٠ - أخرجه الطبراني في «الكبير» (١١٥٣٣)، وأخرجه أبو يعلى (٣٤١/٤) رقم (٢٤٥٦) من طريق
 الحسين بن قيس عن عكرمة عن ابن عباس مرفوعاً.

وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٣٨/١٠) وقال: رواه الطبراني وفيه حسين بن قيس الملقب
 بحنش وهو متروك، وقد وثقه حصين بن نمير، وبقية رجاله رجال الصحيح.

وذكره الحافظ ابن حجر في «المطالب العالية» (٣٣٧١) وعزاه لمسدد وأبي يعلى. وللحديث طريق =

(١) قوله «من نتوء أو قفض» التواء، الارتفاع، والقفض: صغار الحمى. أفاده الصحاح. (ع)

الأغراض في إرسالها، وأنه أرسلها للبشارة بالغيث ولإذاعة الرحمة، وهي نزول المطر وحصول الخصب الذي يتبعه، والروح الذي مع هبوب الرياح وزكاء الأرض. قال رسول الله - ﷺ -: «إذا كثرت المؤتفكات زكت الأرض» (١١٤١). وإزالة العفونة من الهواء، وتذرية الحبوب، وغير ذلك ﴿وَلَيَجْرَى أَلْفُكُ﴾ في البحر عند هبوبها. وإنما زاد ﴿بِأَمْرِهِ﴾ لأن الرياح قد تهب ولا تكون مؤتية^(١)، فلا بد من إرساء السفن والاحتياط لحبسها، وربما عصفت فأغرقتها ﴿وَلَيَنْفُوْا مِنْ فَضْلِهِ﴾ يريد تجارة البحر؛ ولتشكروا نعمة الله فيها. فإن قلت: بم يتعلق وليذيقكم؟ قلت: فيه وجهان: أن يكون معطوفاً على مبشرات على المعنى، كأنه قيل: ليشركم وليذيقكم. وأن يتعلق بمحذوف تقديره: وليذيقكم، وليكون كذا وكذا: أرسلناها.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٤٧)

اختصر الطريق إلى الغرض بأن أدرج تحت ذكر الانتصار والنصر ذكر الفريقين، وقد أخلى الكلام أولاً عن ذكرهما. وقوله: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ تعظيم للمؤمنين

= آخر عن ابن عباس.

أخرجه الشافعي في «الأم» (٢٥٣/١) ومن طريقه البيهقي في «المعرفة» (١٠٧/٣). قال الشافعي: أخبرني من لا أتهم قال: ثنا العلاء بن راشد عن عكرمة عن ابن عباس مرفوعاً. قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف»: أخرجه الشافعي: أخبرني من لا أتهم عن العلاء بن راشد عن عكرمة عن ابن عباس مرفوعاً نحوه. ومن طريقه. أخرجه في المعرفة وفي الدعوات، وهذا المبهم: هو إبراهيم بن أبي يحيى وهو ضعيف. وله طريق أخرى عند أبي يعلى والطبراني وابن عدي من رواية حسين بن قيس عن عكرمة به وحسين ضعيف أيضاً. وهذا المبهم هو إبراهيم بن أبي يحيى وهو ضعيف.

١١٤١ - قال الحافظ الزيلعي في «تخريج الكشاف» (٦٠/٣): غريب.

وقال الحافظ ابن حجر: لم أجده اهـ.

وقد ذكر هذا الحديث ابن قتيبة في «غريب الحديث» (٢٨٠/٢) وقال: يرويه إسماعيل بن أبي أويس عن كثير بن عبد الله المزني عن ربيع بن عبد الرحمن عن أبيه عن جده أبي سعيد. وذكره الخطابي أيضاً في «غريب الحديث» (٦٧٩/١) من قول بعض الأعراب فقال: وقال الأصمعي عن بعض الأعراب: إذا كثرت المؤتفكات زكت الأرض. قال الحافظ في تخريج الكشاف: لم أجده. انتهى.

(١) قوله «ولا تكون مؤتية» في الصحاح: آتيته على ذلك الأمر مؤتية، إذا وافقته. والعامّة تقول: وآتيته. (ع)

ورفع من شأنهم، وتأهيل لكرامة سنية، وإظهار لفضل سابقة ومزية، حيث جعلهم مستحقين على الله أن ينصرهم، مستوجبين عليه أن يظهرهم ويظفرهم، وقد يوقف على (حقاً). ومعناه: وكان الانتقام منهم حقاً، ثم يبدأ ﴿عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وعن النبي ﷺ «ما من امرئ مسلم يردّ عن عرض أخيه إلا كان حقاً على الله أن يردّ عنه نار جهنم يوم القيامة» (١١٤٢). ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿اللَّهُ الَّذِي بَرَسِلُ الرِّيحِ فَنُفِثُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْسِيتَ ﴿٤٩﴾﴾

﴿فَيَبْسُطُهُ﴾ متصلاً تارة ﴿وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا﴾ أي قطعاً تارة ﴿فَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ في التارتين جميعاً. والمراد بالسماء. سمت السماء وشقها، كقوله تعالى: ﴿وَفَرَعَهَا فِي

١١٤٢ - أخرجه الترمذي (٣٢٧/٤) كتاب البر والصلة باب ما جاء في الذب عن عرض المسلم حديث (١٩٣١)، وأحمد (٤٥٠/٦)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١١١/٦) رقم (٧٦٣٥)، والطبراني في «الكبير» كما في «تخريج الكشاف» (٦١/٣) كلهم من طريق أبي بكر النهشلي عن مرزوق أبي بكر التيمي عن أم الدرداء عن أبي الدرداء مرفوعاً. وقال الترمذي: حديث حسن.

قلت: وفي تحسينه - رحمه الله - لهذا الحديث نظر؛ فإن مرزوقاً التيمي مجهول. وقال الحافظ في «التقريب» (٢٣٧/٢): مقبول. يعني عند المتابعة وإلا فلين الحديث. قال الزيلعي: قال ابن القطان في كتابه: ومانعه من الصحة مرزوق هذا؛ فإنه لم تثبت عدالته. قال الحافظ في تخريج أحاديث الكشاف: أخرجه الترمذي، وأحمد، والطبراني من حديث أبي الدرداء. وقال: حسن. ورواه إسحاق، والطبراني، وأبو يعلى، وابن عدي من طريق شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد مرفوعاً نحوه وإسناده ضعيف. واختلف فيه على شهر بن حوشب: فقال العداج عنه هكذا، وقال ليث بن أبي سليم عنه عن أبي هريرة، أخرجه ابن مردويه. انتهى. وللحديث شاهد من حديث أسماء بنت يزيد أخرجه أحمد (٤٦١/٦)، وابن المبارك في الزهد (٦٨٧)، وعبد بن حميد في «المنتخب من المسند» رقم (١٥٧٩)، وأبو نعيم في «الحلية» (٦/٦٧)، والطبراني في «الكبير» (٤٤٢ - ٤٤٣) كلهم من طريق عبيد الله بن أبي زياد عن شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد قالت: قال رسول الله - ﷺ -: «من ذب عن لحم أخيه بالغيب كان حقاً على الله أن يعتقه من النار». وأخرجه أيضاً إسحاق بن راهويه وأبو يعلى كما في «تخريج الكشاف» (٦١/٣). وشهر بن حوشب ضعيف.

وعبيد الله بن أبي زياد القداح. قال الحافظ: ليس بالقوي. وقد خولف في هذا الحديث خالفه ليث بن أبي سليم، فرواه عن شهر بن حوشب عن أم الدرداء عن أبي الدرداء مرفوعاً. أخرجه أحمد (٤٤٩/٦).

لَسَمَاءَ ﴿إِبْرَاهِيمَ: ٢٤﴾، وبإصابة العباد: إصابة بلادهم وأراضيهم ﴿مِن قَبْلِهِ﴾ من باب التكرير والتوكيد، كقوله تعالى: ﴿فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا أَنْتَهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ [الحشر: ١٧]. ومعنى التوكيد فيه: الدلالة على أن عهدهم بالمطر قد تناول وبعد، فاستحکم بأسهم وتمادى إبلاسه١) فكان الاستبشار على قدر اغتمامهم بذلك.

﴿فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحِي الْمَوْتِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥١﴾﴾

قري: أثر وآثار، على الوحدة والجمع. وقرأ أبو حيوه وغيره: كيف تحيي، أي: الرحمة ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ يعني إن ذلك القادر الذي يحيي الأرض بعد موتها، هو الذي يحيي الناس بعد موتهم ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ من المقدورات قادر، وهذا من جملة المقدورات بدليل الإنشاء.

﴿وَلَيْنِ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمِعُ الْأُصْمَاءَ الْأَعْمَى إِذَا وَلُوا مَدْرِينًا ﴿٥٢﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعَمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾﴾

﴿فَرَأَوْهُ﴾ فرأوا أثر رحمة الله. لأن رحمة الله هي الغيث، وأثرها: النبات. ومن قرأ بالجمع: رجع الضمير إلى معناه؛ لأن معنى آثار الرحمة النبات، واسم النبات يقع على القليل والكثير، لأنه مصدر سمي به ما ينبت. ولثن: هي اللام الموطئة للقسم، دخلت على حرف الشرط، و﴿لَظَلُّوا﴾ جواب القسم سد مسد الجوابين، أعني: جواب القسم وجواب الشرط، ومعناه: ليظلمن ذمهم الله تعالى بأنه إذا حبس عنهم القطر فظنوا من رحمته وضربوا أذقانهم على صدورهم مبلسين، فإذا أصابهم برحمته ورزقهم المطر: استبشروا وابتهجوا، فإذا أرسل ريحاً فضرب زروعهم بالصفار، ضجوا وكفروا بنعمة الله. فهم في جميع هذه الأحوال على الصفة المذمومة، كان عليهم أن يتوكلوا على الله وفضلته. فظنوا. وأن يشكروا نعمته ويحمدوه عليها. فلم يزيدوا على الفرح والاستبشار. وأن يصبروا على بلائه، فكفروا. والريح التي اصفر لها النبات: يجوز أن تكون حروراً وحرجفاً. فكلتاها مما يصوح^(٢) له النبات ويصبح هشيماً. وقال: مصفراً: لأن تلك

(١) قوله «إبلاسه١» الإبلاس: الأيس من الخير. والسكوت، والانكسار غماً وحزنًا. أفاده الصحاح. (ع)

(٢) قوله «وحرجفاً... إلخ» في الصحاح «الحرجف»: الريح الباردة. وفيه أيضاً «صوحته الريح»: أبيضته. (ع)

نعلم أهي أربعون سنة أم أربعون ألف سنة؟ وذلك وقت يفنون فيه وينقطع عذابهم، وإنما يقَدِّرون وقت لبثهم بذلك على وجه استقصارهم له. أو ينسون أو يكذبون أو يخمنون ﴿كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ أي مثل ذلك الصرف كانوا يصرفون عن الصدق والتحقيق في الدنيا، وهكذا كانوا يبنون أمرهم على خلاف الحق. أو مثل ذلك الإفك كانوا يؤفكون في الاعتراض بما تبين لهم الآن أنه ما كان إلا ساعة.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَكَذَا يَوْمَ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾﴾

القائلون: هم الملائكة، والأنبياء، والمؤمنون ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ في اللوح. أو في علم الله وقضائه. أو فيما كتبه، أي: أوجبه بحكمته. رذوا ما قالوه وحلفوا عليه، وأطلعوهم على الحقيقة ثم وصلوا ذلك بتقريعهم على إنكار البعث بقولهم: ﴿فَهَكَذَا يَوْمَ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أنه حق لتفريطكم في طلب الحق واتباعه. فإن قلت: ما هذه الفاء؟ وما حقيقتها؟ قلت: هي التي في قوله [من الهزج]:

..... فَقَدْ جِئْنَا خُرَاسَانَ^(١)

وحقيقتها: أنها جواب شرط يدل عليه الكلام. كأنه قال: إن صح ما قلتم من أن خراسان أقصى ما يراد بنا فقد جئنا خراسان، وأن لنا أن نخلص، وكذلك إن كنتم منكرين البعث فهذا يوم البعث، أي فقد تبين بطلان قولكم، وقرأ الحسن يوم البعث، بالتحريك ﴿لَا يَنْفَعُ﴾ قرئ بالياء والتاء ﴿يُسْتَعْتَبُونَ﴾ من قولك: استعتبني فلان فأعتبته. أي: استرضاني فأرضيته. وذلك إذا كنت جانياً عليه. وحقيقة أعتبته: أزلت عتبه؛ ألا ترى إلى

= وقال الحافظ ابن حجر: لم أجده هكذا. اهـ.

والثابت في الصحيحين من حديث أبي هريرة مرفوعاً: ما بين النفتين أربعون قالوا: أربعون يوماً قال: آبيت، قالوا: أربعون شهراً؟ قال: آبيت، قالوا: أربعون سنة؟ قال: آبيت. أخرجه البخاري (٥٥٨/٨) كتاب التفسير باب تفسير «عم يتساءلون» حديث (٤٩٣٥)، ومسلم (٤/٢٢٧٠ - ٢٢٧١) كتاب الفتن: باب ما بين النفتين حديث (٢٩٥٥/١٤١).

قال الحافظ في تخريج الكشاف: لم أجده هكذا. وفي الصحيحين عن أبي هريرة مرفوعاً «ما بين النفتين أربعون قالوا: يا أبا هريرة أربعون سنة؟ قال: آبيت، قالوا: أربعون شهراً؟ آبيت، قالوا: أربعون يوماً؟ قال: آبيت». انتهى.

(١) تقدم.

قوله [من الكامل]:

غَضِبْتَ تَمِيمٌ أَنْ تُقْتَلَ عَامِرٌ يَوْمَ النَّسَارِ فَأَعْتَبُوا بِالضَّيْلَمِ^(١)

كيف جعلهم غضاباً، ثم قال: فأعتبروا، أي: أزيل غضبهم. والغضب في معنى العتب. والمعنى: لا يقال لهم أرضوا ربكم بتوبة وطاعة، ومثله قوله تعالى: ﴿لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا﴾ [الجاثية: ٣٥]، ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾. فإن قلت: كيف جعلوا غير مستعتبين في بعض الآيات، وغير معتبين في بعضها، وهو قوله: (وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين)؟ قلت: أما كونهم غير مستعتبين: فهذا معناه. وأما كونهم غير معتبين، فمعناه: أنهم غير راضين مما هم فيه، فشبّهت حالهم بحال قوم جني عليهم، فهم عاتبون على الجاني غير راضين عنه، فإن يستعتبوا الله: أي يسألوه إزالة ما هم فيه، فما هم من المجابين إلى إزالته.

﴿وَلَقَدْ صَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَنْ جِئْتَهُمْ بِبَيِّنَاتٍ لِيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ (٥٨) ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٥٩)
﴿فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ (٦٠)

﴿وَلَقَدْ﴾ وصفنا لهم كل صفة كأنها مثل في غرابتها، وقصصنا عليهم كل قصة عجيبة الشأن، كصفة المبعوثين يوم القيامة، وقصتهم، وما يقولون وما يقال لهم، وما لا ينفع من اعتذارهم ولا يسمع من استعتابهم، ولكنهم - لقسوة قلوبهم ومع أسماعهم حديث الآخرة - إذا جئتهم بآية من آيات القرآن، قالوا: جئتنا بزور وباطل، ثم قال: مثل ذلك الطبع يطبع الله على قلوب الجهلة. ومعنى طبع الله: منع الألفاظ^(٢) التي ينشرح لها الصدور حتى تقبل الحق، وإنما يمنعا من علم أنها لا تجدي عليه ولا تغني عنه، كما يمنع الواعظ الموعظة من يتبين له أن الموعظة تلغو ولا تنجع فيه، فوقع ذلك كناية عن قسوة قلوبهم وركوب الصدأ والرین إياها، فكانه قال: كذلك تقسو وتصدأ قلوب الجهلة، حتى يسموا المحققين مبطلين، وهم أعرق خلق الله^(٣) في تلك الصفة ﴿فَأَصْبِرْ﴾ على عداوتهم ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ بنصرتك وإظهار دينك على الدين كله ﴿حَقٌّ﴾ لا بد من إنجازها والوفاء به، ولا يحملنك على الخفة والقلق جزعاً مما يقولون ويفعلون فإنهم قوم شاكون

(١) تقدم.

(٢) قوله «ومعنى طبع الله منع الألفاظ» أوله بذلك بناء على أنه تعالى لا يخلق الشر وهو مذهب المعتزلة وذهب أهل السنة إلى أنه يخلقه كالخير، فالآية على ظاهرها. (ع)

(٣) قوله «وهم أعرق خلق الله» في الصحاح: أعرق الرجل. أي: صار عريقاً، وهو الذي له عرق في الكرم. (ع)

ضالون لا يستبدع منهم ذلك . وقرئ بتخفيف النون . وقرأ ابن أبي إسحاق ويعقوب : ولا يستحقنك ، أي : لا يفتنك فيملكوك ويكونوا أحق بك / ٢ / ٩٢ ب من المؤمنين .
عن رسول الله - ﷺ - : « من قرأ سورة الروم كان له من الأجر عشر حسنات بعدد كل ملك سبح الله بين السماء والأرض وأدرك ما ضيع في يومه وليته » (١١٤٥) .

١١٤٥ - تقدم برقم (٣٤٦) وهو حديث فضائل القرآن سورة سورة .
قال الحافظ في تخريج الكشاف : أخرجه الثعلبي ، وابن مردويه ، والواحدي بأسانيدهم إلى أبي بن كعب . انتهى .